دقات الخوف

أحمد كمال الوكيل

دقات الخوف

أحمد كمال الوكيل

الطبعة الأولى ، ٢٠١١

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١٠ش عبد الهادي الطحان ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

د / مصطفي عمر الفاروق

تدقيق لغوي :

سارة سرحان

رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٢١٢

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ١٢١- ١

دقات الخوف

أحمد كمال الوكيل

قصص

الطبعة الأولى

٢٠١١



دار اكتب للنشر والتوزيع



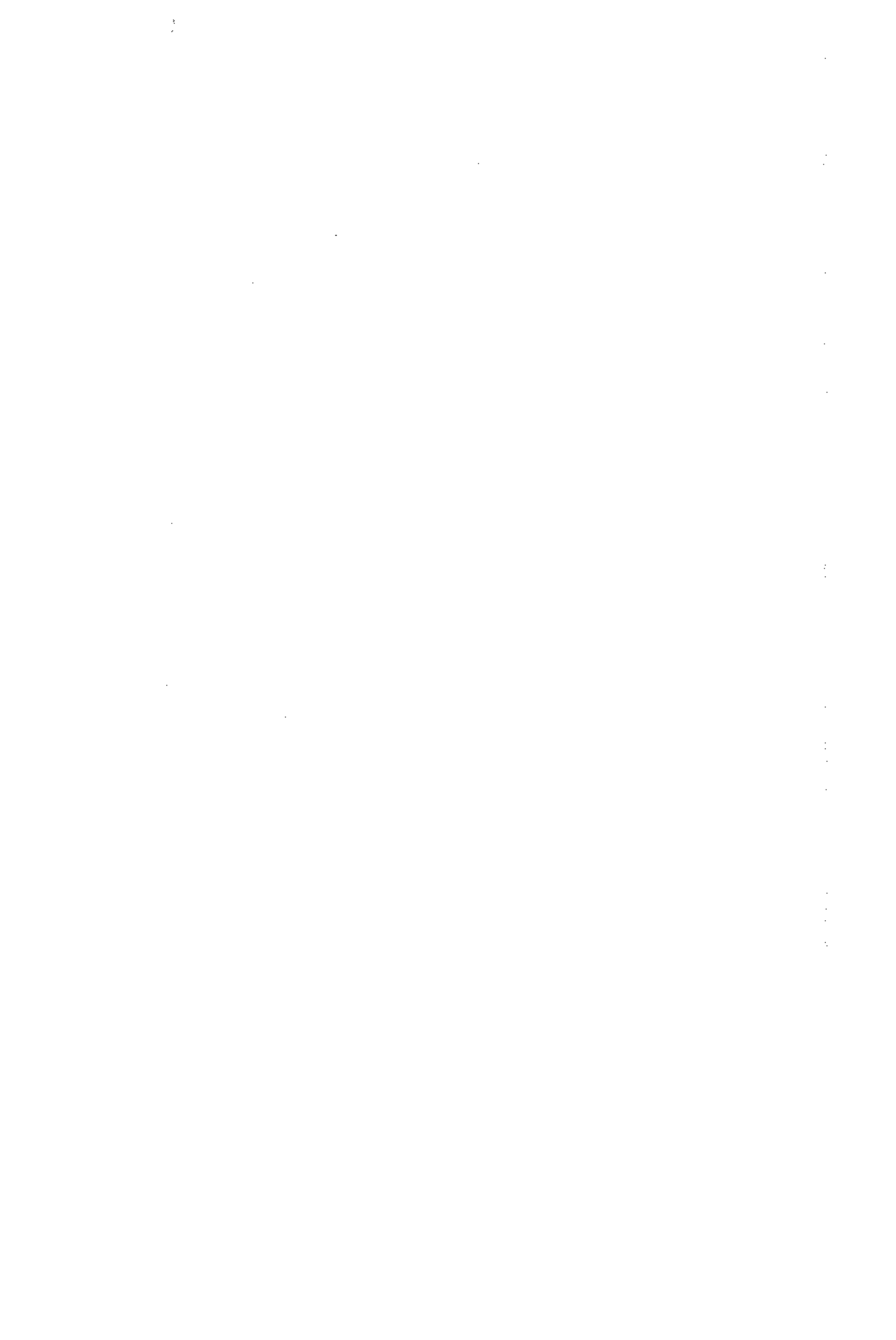
إهداء

إلى أستاذي العزيز.. صائغ هذه الكلمات:

أعتقد أننا نحرز نصرًا عظيمًا في هذا الزمن، الذي قل فيه الاهتمام بالثقافة وانتصرت ـ إلى حين ـ قيم السوقية والاستسهال، هذا النصر هو أن نحسن الاستمتاع بالفنون.. أن نقرأ.. ونحاول أن نكتب.. أن نمنح الخيال فرصة، ونحترم العلم..

د. أحمد خالد توفيق

دقات الخوف



"لا يعلم الغيب إلا الله (سبحانه وتعالى).."

وقفت شارد الذهن أتطلع إلى تلك الآلة الرهيبة، وهذه العبارة تتردد بداخلي مرات ومرات بلا انقطاع.

وأنا أتساءل:

- ترى من ذلك المجنون الذي صنع هذه التحفة المرعبة؟!

هي قلعة.. قلعة سوداء بحجم صندوق صغير (ماكت)، لكنها متقنة الصنع إلى حد غير عادي..

الهيكل الخارجي، الأبراج، النوافذ، الباب، الشرفة..

كلها نماذج رائعة صنعتها يد فنان مجنون، وفي تلك المساحة الواقعة بين أعلى الباب وأسفل الشرفة استقرت تلك الآلة الرهيبة، التي أخشاها مثلما أخشى الموت نفسه..

الساعة!!

قد يظنني البعض مخبولاً، ولكنها الحقيقة!

فبالنسبة لشخص سيء الحظ مثلي يمثل الزمن الكابوس الأعظم له، فلحظات سعادتي في هذه الدنيا قليلة.. بل نادرة.

أما الجزء الأعظم من حياتي فهو مشاكل، مشاكل لا تنتهي، وكابوس لا أستيقظ منه، ولا أمل في الاستيقاظ منه إلا بالموت، ولكني أخشاه.. وهذا طبيعي ما من كائن حي لا يخشى الموت.. وأتمناه، ويالها من مفارقة، أخشاه وأتمناه في آن واحد!

والساعة هي تلك الآلة اللعينة التي تـذكرني بـأن لحظـة السعادة ستمر، وبعدها يأتي دهر من المشاكل والصراعات.

آه.. آه لو تتوقف تلك الساعة عن العمل، ويتوقف الـزمن عند لحظة السعادة في كل الدنيا!

لا آلام، لا مشاكل، لا حروب، ولا دموع.

لكن هذا لا يحدث إلا في الجنة.. ونحن في الدنيا..

وشتاااااان ما بين هذه وتلك.

وأمام هذه التحفة الفنية التي أشـاهدها في واجهـة أحـد المحلات التجارية، معروضة للبيع، لم أتمالك نفـسي وقـررت شراءها.. نعم أنا أكره الساعة إلى أقصى حـد، ولا أرتـدي ساعة معصم، وكأنما أخشى أن تلدغني عقارها!

ولكني أعشق الفن وأقدره.. خاصة ذلك الفن المرعب.

واشتريت تلك التحفة الرهيبة التي تمثل قلعة كئيبة المنظر، إلى حد يفوق قلعة الكونت (دراكولا) شخصياً.. وتتوسطها ساعة دائرية هي بدورها جزء من لوحة الرعب الذي تمثله القلعة، فقد استبدلت بأرقامها الاثنا عشر نماذج دقيقة الـصنع لجمـاجم بشرية، على حين يمثل عقارها الثلاثة سيف ورمـح وبلطـة مزدوجة الرأس.

عدت إلى منزلي وأنا أحمل معي ذلـك الرعـب المجـسم، ووضعتها في الردهة، في مكان متميز، ليراها جميـع أصـدقائي

عندما يزورونني، ورأيت عقرب الدقائق الذي يمثلــه الــسيف يقترب من الجمجمة التي تمثل الرقم (١٢)، فتساءلت في نفسي:

ـــ ترى ما.........؟!

وقبل أن أكمل عبارتي، جاءني الجواب عند التقاء عقــرب الدقائق بالجمجمة (١٢)، فقد فتحت شرفة القلعة، وخرج منها تمثال صغير لشبح ملثم، وقد امتزج خروجه بصوت ضـــحكة شيطانية ساخرة ترددت لخمس ثوان، قبل أن يعود الــشبح إلى داخل القلعة، وتغلق الشرفة مرة أخرى!

ظللت ثلاث دقائق كاملة أحدق في الشرفة المغلقة ذاهلاً، ثم ضحكت في عصبية، محاولاً إزالة توتري، قائلا:

ـــ يا له من جنون!

ثم ذهبت لقراءة بعض الروايات، وتناسيت الأمر برمته.

***

عجباً! ما سر هذا الجفاف العجيب في حلقي، الذي جعلني استيقظ من نومي، في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟!

غادرت فراشي وحجرة نومي كلها، وخرجت إلى ردهـــة المنزل لأتناول جرعة من الماء المثلج، عله يروى ظمئي.

على الضوء الخافت المنبعث من الثلاجة أحسست أن شـــيئاً ما يجرى خلفي، فاستدرت إلى الخلف في حدة، ولكني لم أجد سواها..

القلعة.. قلعة الرعب، وساعتها المخيفة وهي تدق:

تك.. تك.. تك.. تك.. تك..

اقتربت منها أكثر، وأنا أتأمل شرفتها و...

وفجأة.. وعندما صرت على بعد سنتيمترات منها، فتحت الشرفة وخرج منها ذلك الشبح الملثم، و.....

واتسعت عيناي في ذهول وأنا أنظر إلى الساعة التي أشارت عقاربها إلى الثانية والنصف وسبع دقائق بعد منتصف الليل..

فلم يكن هذا موعد خروج الشبح بأي حالٍ من الأحوال!

ثم تحول ذهولي إلى رعب.. عندما انطلقت تلك الضحكة الشيطانية الساخرة بصوتٍ كهزيم الرعد، ووجدت نفسي أتضاءل أو أن القلعة تتضخم، لست أدري!

المهم أنني في النهاية وجدت نفسي أمام قلعة حقيقية لا مجرد (ماكت).. ورأيت بابها يفتح في بطء، وشيئاً مجهولاً يدفعني للدخول.. أردت أن أعدو هارباً، وقررت ذلك بالفعل، ولكنني وجدت نفسي أتجه إلى باب القلعة، وكأنني مسلوب الإرادة، ثم إنني دفعت الباب ودخلت!

***

وهذا طبيعي، ما من كائن حي لا يخشى الموت..

ويا لها من مفارقة، أخشاه وأتمناه في آنٍ واحد!

أغلق الباب خلفي في عنف، وهنا انتفضت في هلع وكأنما عادت إليّ إرادتي، فالتفت أحاول الخروج وأدق على الباب صارخاً، مستنجداً، ولكن الباب لم يستجب وما من مجيب.

لكن دقاتي لم تكن الدقات الوحيدة التي تتردد في القلعة، بل كانت هناك دقات منتظمة تأتي من كل مكان فيها..

تك.. تك.. تك.. تك.. تك..

إنها الساعة، نعم هي.. اللعنة التي تطاردني أينما كنت وحيثما أكون، أخذت أتأمل ذلك البهو الفسيح، الذي امتلأت جدرانه بخيوط العنكبوت، ومجموعة من الفئران الصغيرة تلهو على أرضيته الترابية.. ونظرت إلى الأبواب الثلاثة المغلقة التي يحتل كل منها مساحة كبيرة في كل جدار من جدران البهو، وكأنما كانت تنتظر حتى أنظر إليها لتفتح، فقد انفتحت الأبواب الثلاثة في وقت واحد، وخرج من كل منها عقرب هائل الحجم، بحجم سيارة صغيرة، ثم اتجهوا نحوي، وتراجعت في ذعر فالتصق ظهري بالباب، وأدركت أنها نهايتي.

تك.. تك.. تك.. تك.. تك..

مع كل دقة تقترب العقارب أكثر، وتزداد دقات قلبي أكثر وأكثر.. وهنا وجدت يدي تقبض على شيء ما، فنظرت لأجد بها رمحا قويا فضي الرأس.. لا أعلم كيف جاء؟! ولا من أين؟! لكني أدركت إنني أتقن استعماله، وأبرع في ذلك، برغم إنني لم

أشاهد مثله طوال حياتي إلا في الأفلام التاريخية، ولا تـسـألوني كيف حدث ذلك؟!

لقد وجدت نفسي أتفادى، وأصد، وأضـرب، وأطعـن، وأكر، وأفر.. ولم أنتبه إلى هذا إلا وأنا أقفز لأعلى وأطعن آخر العقارب طعنة قاتلة، صارخا: ـ توقفوا، عليكم اللعنة!

ثم سقطت أرضا ألهث من التعب وأتطلع إلى الأشلاء الممزقة من حولي ـ للعقارب الثلاثة.. وإلى رمحي المغروس في ظهـر إحداها ـ في ذهول، ثم فجأة تلاشى كل هذا.. ولم يعد هناك سوى الأرض الترابية والعناكب والفئران، حتى الرمح اختفـى بدوره.

نهضت واقفا واتجهت بتلك الرغبة اللاإرادية إلى الباب الذي في مواجهتي مباشرة، ودفعته لأجد نفـسي في قاعـة دائريـة واسعة، لها نفس الأرضية الترابية ونفس صفات البـهو.. وإن كانت أكثر وحشة وأكثر ظلمة.. لا أدري من أين يأتي الضوء ولكنني أرى.. وكالعادة أغلق الباب خلفي ووجدت نفـسي سجين هذا القبر..

ولم يكد يأتي ذكر القبور، حتى وجدت يدا صـلبة تجـذبني لأسفل، لكني تمالكت نفسي ونظرت إلى موضع قدمي، لأجد يدا من العظام لا يكسوها لحم قد خرجت من الأرض وراحت تجذب قدمي لأغوص في بـاطن الأرض.. وبحركـة دفاعيـة

لاشعورية ضربتها بقدمي الأخرى وأفلت منها، لكنها لم تكن الوحيدة..

لقد انشقت الأرض عن عشرات الأيادي العظمية التي أخذت تحاول جذبي إلى قبورها، وأنا أتفادى هذه وأدفع هذه وأقفز فوق تلك حتى أصبحت في مركز القاعة تماما.. عندئذ وجدت شيئا ما يتألق في يدي، فإذا به سيف لامع النصل، ذهبي المقبض.. وأفقت من المفاجأة على إحدى الأيادي العظمية تجذبني بقوة، فرفعت سيفي وهويت عليها بضربة فصلتها عن معصمها.. أقصد عظام المعصم..

ترددت في القاعة صرخة حادة، قبل أن تنطلق الضحكة الشيطانية، ويبرز من أرضية القاعة، اثنا عشر هيكلا عظميا، يحمل كل منها سيفا حادا، ويصنعون حولي دائرة، و... وبدأ الهجوم.

من النظرة الأولى أدركت إنني هالك لا محالة، فالفوز بحياتي يستلزم قتل اثني عشر خصما ــ دعك من أنهم ميتون بالفعل!

وكدت أستسلم لمصيري هذه المرة، لولا أن عادت حالة اللاإرادة تسيطر عليّ، ووجدت نفسي أمسك السيف بكلتا قبضتي وأستخدمه كمقاتلي (النينجا) الخرافيين، وبسرعة خرافية أيضا، فأديره في الهواء كالمروحة إلى الأمام، وإلى الخلف، وإلى اليمين، وإلى اليسار، وأقفز متفاديا الضربات، وأدور حول

نفسي كالإعصار مطيحا بكل من يقترب مني في دائرة قطرها ثلاثة أمتار.

وعندما توقفت، وأدرت عينيّ فيما حولي، وجدت القاعة قد تحولت إلى مخزن للعظام البشرية، وفجأة، نهض أحد الهياكل الذي لم أحطمه تماما، وانقض عليّ شاهرا سيفه مطلقا تلك الصرخة الحادة!

وشهرت سيفي استعدادا لملاقاته، لكني لم أجد السيف في قبضتي.. لقد اختفى.. هكذا كما ظهر!

لكني استقبلت الهيكل بذراعي متفاديا ضربته، وحملته كالريشة، وألقيته بقوة ليصطدم بباب القاعة، ويسقط محطما أسفله..

وفتح الباب!!

لم أدهش كثيرا، واندفعت أغادر القاعة متخيلا أنني سأغادر القلعة كلها، ولكن هيهات.. لقد وجدت نفسي في قاعة أكثر اتساعا، تمتلئ بالتروس المختلفة الأشكال والأحجام..

ومن بين هذه التروس خرج هو.....

(شبح الشرفة)!

***

كنت أتوقع هذا.. نعم، لم تكن هناك مفاجآت هذه المرة!

منذ أن دخلت القلعة، وأنا أعلم أنني سأقابله.. وحينما نظرت إلى يدي كنت أعلم ما الذي سأجده بها.. البلطة مزدوجة الرأس، تماما مثل التي في يده هو..

ورأيته يقترب مني ليطيح برقبتي، و لم أنتظر..

رفعت البلطة.. واندفعت نحوه صارخا في حماس:

ـــ إلى الجحيم أيها اللعين!

وهويت بها على رأسه.. ولكنني وجدت نفسي أتجاوزه لأرتطم بالجدار، وأسقط أرضا، وقد أدركت تلك الحقيقة المرعبة..

إنه ليس له كيان مادي، إنه شبح حقيقي!

التفت الشبح إليّ ورفع بلطته وهوى بها على رأسي..

وبحركة غريزية رفعت بلطتي لأصد بها بلطته.. ونجحت.. واستمر القتال اليائس وأنا أصد، وأصد، وأصد..

ولا أضرب.. لا فائدة ترجى من ضرب الهواء، و....

واختفت البلطة التي بين يدي، وانطلقت تلك الضحكة الشيطانية الرعدية تدوي في كل أنحاء القلعة، مع صوت ساخر شامت يهتف:

ـــ انتهى الوقت أيها الغبي.

وهوت البلطة على رأسي، و....

واستيقظت..

تك.. تك.. تك.. تك..

غارقا في العرق، غادرت فراشي مسرعا، وخرجت إلى ردهة منزلي لألقي نظرة على ساعة الرعب هذه.. لكني لم أجدها، لم أجد سوى ساعة الحائط العادية التي تزين ردهة منزلي.

عدت إلى فراشي، وأنا أتساءل عن سر هذا الكابوس السخيف، لكني لم أكد أرى الكتاب والرواية الملقيين على فراشي بإهمال، واللذين كنت أقرأهما قبل أن أخلد إلى النوم حتى فهمت كل شيء..

كانت الرواية بعنوان (قلعة الشبح).

والكتاب بعنوان.. (كل شيء عن الساعة)!

ومن يومها وأنا أطلق ضحكة ساخرة عالية.. كلما التقى عقرب الدقائق بالرقم (١٢)، واستمتع بتلك الدقات الجميلة..

(دقات الخوف)!

***

١٩٩٦

هي

كنت في ذلك الصباح مستقلا قطار (مترو الأنفـــاق)، في طريقي إلى كليتي، وقد أسندت رأســـي إلى زجـــاج إحـــدى نوافذه، وأنا أستعرض في خيالي أحداث رواية رومانسية رائعة، قرأتها بالأمس..

عندما دوى في أذنيّ صوت ضحكات عالية لمجموعـــة مـــن الفتيات، قد جلسن بالمقعدين الخلفيين لي مباشرة.. وأطلقـــت زفرة حارة، وأنا أقول لنفسي حانقا:

ـــ اللعنة.. ها قد انتُزعت من دنيا الخيال الوردية.. لتتحطم أحلامي على صخرة الواقع السوداء!

ثم لم ألبث أن حاولت صم أذنيّ عن أصـــواتهن، وعـــدت محاولا التحليق مرة أخرى في سماء الخيال، إلا إنني لم أســـتطع منع نفسي من المقارنة، بين هذه النوعية من الفتيات، وتلـــك الصورة التي رسمتها في خيالي لفتاة أحلامي..

وأتت نتيجة المقارنة سلبية للغاية..

فهن يختلفن تمام الاختلاف عنها، ولا يوجـــد أدنى وجـــه للمقارنة بينها وبينهن.. كما لا يوجد أدنى وجه للمقارنة بـــين السماء والأرض!

وأفقت من شرودي، على صدمة خفيفة لرأسي، في زجاج النافذة، عندما توقف القطار، في إحدى محطاته..

فتنهدت في ضيق، وقد أدركت أنه لا فائدة من المحاولـــة..
ثم رفعت عينيّ أتأمل ذلك الحي، الذي توقف فيه القطار..

ورأيتها!

"هي! أكاد أقسم أنها هي!"

كذا هتفت لنفسي، وأنا أتأمل تلك الفتاة الساهمة، الشاردة، التي تطلّ من إحدى النوافذ، بالطابق الثاني، لمـــترل متـــهالك الجدران، وقد وضعت خدها الأيسر، على راحتها اليـــسرى، واستندت بمرفقها إلى إفريز النافذة.. وقد أطلت مـــن عينيهـــا نظرة حالمة، لم أر لها مثيلا قط، في حياتي كلها..

لم تكن فاتنة كما قد يتبادر إلى الذهن..

بل كانت ذات جمال هادئ، من النوع الذي يطمـــئن لـــه القلب، وتستكين له النفس ـــ وقد أدركت ذلك برغم المسافة التي تفصلني عنها ـــ فهي على حد التعبير (ملائكية الملامح).. ينساب شعرها الأسود الفاحم على كتفيها، كليل بلا نجوم..

ورأيتها تدير وجهها نحوى..

ثم تبتسم!

لم أصدق عينيّ، وأخذت أفتش عمـــن توجه له ابتسامتها.. ولكن قلبي أنبأني أنها موجهة لي.. فعدت ألتفت إليها، مشيرا لها أن.... "أنا؟!"

فاعتلت وجهها حمرة الخجل، وأسرعت تطـرق برأسـها أرضا..وهنا ابتسمت لها في سعادة بالغة.. فلم تكـد تلمـح ابتسامتي، حتى أسرعت تغادر النافذة في حياء وقد ازداد احمرار وجهها..

وانطلق القطار مرة أخرى..

لكنه ما كاد يتوقف في المحطة التالية، حتى أسرعتُ أغادره، وأنتقل إلى الرصيف المقابل، لأستقل القطار العائد، وقد انتابتني حالة من (هستريا الهوى) لو صح التعبير.. وأخذ قلبي يهتف:

ـ نعم.. إنها هي.. (فتاة أحلامي)، التي طالما تمنيتـها في يقظتي ومنامي.. ما من شك في هذا.. ولن أضيع لحظة واحدة حتى أراها، وأتعرف عليها.. وأرتبط بها أيـضا.. حـتى وإن كانت من حور الجنة، أو من جنيات الأرض!

وهبطت في المحطة المرجوة، وغادرتها مـسرعا إلى الجانـب الآخر من الشارع.. و.....

وتوقفت منبهتا.. مصعوقا.. هاتفا في ذهول:

ـ يا إلهي! كيف حدث ذلك؟!

وكان لذهولي مبررا قويا.. بل غاية في القوة..

لقد كان منزلها أطلالا مهدمة.. مجموعة من أكوام الطـــوب الأحمر.. وأنصاف الجدران المحطمة، التي تخلو من أي أثر للحياة على الإطلاق!!

وكمن تطارده الأسوُد أسرعت أعدو إلى (كشك) خـــشبي صغير مقام على مقربة من الأطلال..

وسألت صاحبه في فزع:

ـــ متى تهدم هذا المنزل؟!

نظر إليّ الرجل، كمن يشاهد معتوها هاربا مـــن مـــصحة نفسية.. وأجابني بوجل:

ـــ لا أعلم! إنه هكذا منذ أقمت (كشكي) هنا.. من ثلاث سنوات تقريبا!

وعظم ذهولي، وقد تبينت الحقيقة المفزعة!!

إنها لم تكن هذا ولا ذاك!!

لقد كانت شبحا!!

(فتاة أحلامي) التي تمنيتها في يقظـــتي ومنـــامي، لم تكـــن سوى شبحا!!

وعدت حزينا.. كسير الفؤاد.. إلى الأطلال مرة أخرى..

وأخذت أنقب فيها..

عن ماذا؟! لا أدرى!!

حتى عثرت على كراسة مذكرات مهترئة الأوراق.. قلّبت صفحاتها في لهفة.. ووجدت فيها صورتها.. نفس الملامح الهادئة.. ونفس الابتسامة الرقيقة، والنظرة الحالمة..

وخيل إليّ أن ابتسامتها تتسع أكثر، وأكثر.. وهي تقول لي:

ـــ لا تحزن يا حبيبي.. أنا معك.

وابتسمتُ..

ومن يومها.. وكلما اشتقت إلى (فتاة أحلامي).. أو رأيت واحدة من أولئك الفتيات اللائي تزعجني ضحكاتهن..

أخرج حافظة نقودي، وأخرج منها صورتها، وأتأمل في هيام ابتسامتها الرقيقة، ونظرتها الحالمة..

وعندما يسألني أحد أصدقائي.. "من هي؟!"

أقول له، وقد أشرق وجهي بابتسامة حانية:

ـــ هي؟!

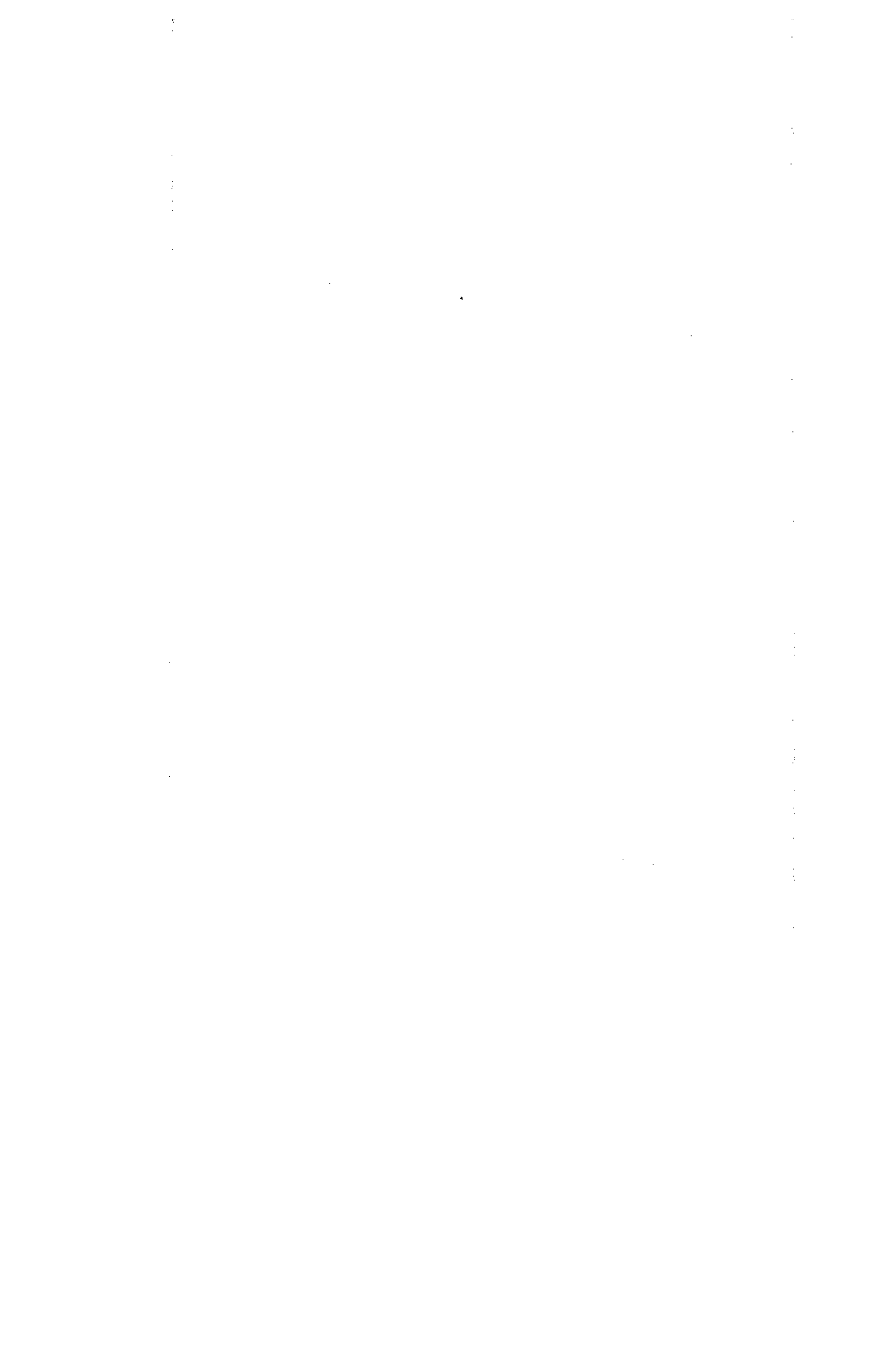
هي.. (هي)!

***

١٩٩٦



رومانسي



ـــ ما هذا يا أستاذ (أحمد)؟!

قالها الأستاذ (أمجد رمزي) صاحب ومــدير دار (الأدبـاء) للنشر والتوزيع، موجها سؤاله إلى الأستاذ (أحمــد ســرحان) الكاتب الرومانسي الشاب.. وهو يقدم إليه ملفــا متوســط الحجم.. كتبت على غلافه الخارجي بحروف كبيرة عبارة:

السفاح الأخير

قصة بوليسية

قرأ (أحمد) العبارة بحيرة.. قبل أن يجيب:

ـــ إنها أولى رواياتي البوليسية، التي كتبتها بناءً على رغبــة سيادتكم!

هتف (أمجد) في ثورة مفاجئة:

ـــ بوليسية! أين البوليسية هنا يا رجــل؟! إنهــا تــصلح لأن تكون إحدى رواياتك الرومانسية الحالمة!!

قال (أحمد) في ارتباك:

ـــ كيف؟! إنها رواية تتحدث عن سفاح شرير، يقتل كــل من يعترض طريقه بلا رحمة، ويطارده طوال الوقــت ضــابط شرطة فذ، حتى يوقع به في النهاية!

واصل الأستاذ (أمجد) هتافه الغاضب:

ـــ نعم.. ولكنها تخلو من العبارات التقليدية التي تزخر بها عادة هذه النوعية من الروايات.. مثل عبارة:

"اذهب إلى الجحيم".. "تبا لك أيها الوغد".. "عليك اللعنة".. إلى آخره!.. كما أنها تمتلئ بالأخطاء، من العنوان.. وحتى كلمة (النهاية).. ما معنى عنوان (السفاح الأخير) في رأيك؟!

أجابه (أحمد) بحرج:

ـــ لقد أردت بهذا العنوان التعبير عن أمنيتي في الحياة.. بأن يسودها الخير، وينتهي الشر من الدنيا فلا يعود بها أي سفاح على الإطلاق.

تمتم الأستاذ (أمجد) من بين أسنانه:

ـــ الرحمة! يا أستاذ (أحمد).. أنت تدرك جيدا.. أن ذلك قمة المستحيل.. فالشر باق ما بقت الدنيا.. أليس كذلك؟!

تنحنح (أحمد) متمتما بحرج أشد:

ـــ إنها.. إحم.. مجرد أمنية.

بذل الأستاذ (أمجد) مجهودا خرافيا للسيطرة على أعصابه، وهو يقول:

ـــ أمنية! همممم.. حسنا، هذه وكانت أمنيـــة.. والـــذي كتبته في الفصل الرابع.. ماذا تسميه؟!

(أحمد) بتساؤل:

ـــ عفوا يا (أمجد) بك.. ولكن أي شيء تقصد؟!

عاد (أمجد) يتناول منه الملف.. وأخذ يقلب صفحاته، حتى توقف عند صفحة ما وشرع يقرأ:

ـــ "تسلل السفاح إلى غرفة السيدة (هدى) بحذر، ثم انحـــنى أمامها قائلا بحزن، وبلهجة مهذبة: ـــ سيدتي الجميلة.. تقبلـــي أسفي الشديد، فأنا مضطر لقتلك الآن"!!

ثم مال نحوه مردفا:

ـــ هل تريد أن تفلس الدار يا أستاذ (أحمد)؟!

أسرع (أحمد) يقول بدهشة:

ـــ كلا بالطبع.. ولكن، لم هذا السؤال؟!

عاد (أمجد) لثورته من جديد:

ـــ أتسألني لم؟! أتسعى لإصابتي بالجنون يا رجـــل؟! هـــل يوجد سفاح في العالم يحزن لقتله إحدى ضحاياه.. والأدهـــى أنك لم تذكر كيف قتلها؟!

مضت لحظات من الصمت، إلى أن قال (أحمد):

ـــ في الواقع يا سيدي، أنا لست متخيلا وجود مثل ذلــك الرجل الذي يقدم على قتل سيدة رقيقة، مثل السيدة (هــدى) بطلة روايتي، دون حتى أن يحزن لارتكابه تلك الجريمة الشنعاء! وللسبب نفسه أغفلت ذكر وسيلة القتل!

تطلع إليه (أمجد)، كأنما يتطلع إلى معتوه، ثم قال:

ـــ وماذا عن الفصل الخامس؟!

سأله (أحمد) بتوتر، وقد غمره العرق:

ـــ ماذا عنه؟!

ـــ في وصفك للسفاح.. إنك تقول ـــ على لسان المقــدم (محسن): "إنه رجل غير آدمي".. أهذا أقصى ما اســتطاع أن يقوله البطل، عن الرجل الذي قتل زوجته ـــ زوجة المقــدم ـــ التي يحبها أكثر من نفسه؟!

سأله (أحمد) ببلاهة:

ـــ وماذا يستطيع أن يقول؟!

صرخ (أمجد) في وجه:

ـــ إن أقل ما يقال عن سفاح كهذا، أنه ذئــب بــشرى.. وحش حقير.. وغد دموي.. قاتل شيـــ.....!!

ثم توقف عن إتمام عبارته، واستطرد بحنق:

ـــ لا فائدة! ثم ما هذا العبث الــذي كتبتــه في الفــصل الأخير؟!

(أحمد) بقلق:

ـــ أي عبث؟!

عاد (أمجد) يتصفح الملف، ثم أخذ يقرأ ثانية:

ـــ "واستمرت المطاردة بين الاثنين حتى بلغ (شادي) حافة الجبل، فالتفت يواجه المقدم (محسن) محاولا طعنه بمديته الحادة، إلا أن (محسن) تفادى الطعنة بسرعة، ووجه إلى وجه (شادي) قبلة حانية أودعها كل رقته، ألقت به من فوق الجبل"!

فغر (أحمد) فاه بــذهول.. ومــضت لحظــات، قبــل أن يهتف بخجل:

ـــ معذرة يا (أمجد) بك، يبدو أن ذهني قد شرد وأنا أكتب هذه العبارة، لقد قصدت أن أقول:

"ووجه إلى وجه (شادي) لكمة ساحقة، أودعها كل قوته، ألقت به من فوق الجبل.."

سيادتك تعلم أنني كاتب رومانــسي.. ولــيس لي خــبرة بالكتابة البوليسية.

تنهد الأستاذ (أمجد) بعد أن هدأت ثورته أخــيرا، ثم قــال بلهجة الواعظ:

ـ استمع إليّ جيدا يا (أحمد).. إننا لم نعد نحيا في عصر الرومانسية.. لقد انقرضت رومانسيتنا، وذهبت للأبد.. حياتنا الآن هي مزيج رهيب من العنف والصخب.. من شجار بالأيدي بين اثنين من المتشردين، إلى الحروب التكنولوجية التي تفني دولا بأكملها.. من صراخ الرُضع الذين يولدون سنويا بالملايين، إلى ضوضاء المصانع والسيارات التي فاقت البشر عددا.. لم يعد في قلب ذلك الجنون مكانا لكلمة رقيقة، أو همسة حانية.. هل تفهمني؟!

أومأ (أحمد) برأسه إيجابا ـ كأنما يقرأ خبر نعيه في الصحف ـ دون أن ينبس ببنت شفة.. فتابع الأستاذ (أمجد) حديثه، قائلا:

ـ حسنا.. خذ واذهب لتصلح ما بها من أخطاء.. فهي ـ على الرغم من ذلك ـ تصلح كبداية.

و أعطاه الرواية، فتناولها (أحمد) بيد مرتجفة.. وغادر المكتب بخطوات زاحفة.. كأنما يسير إلى القبر..

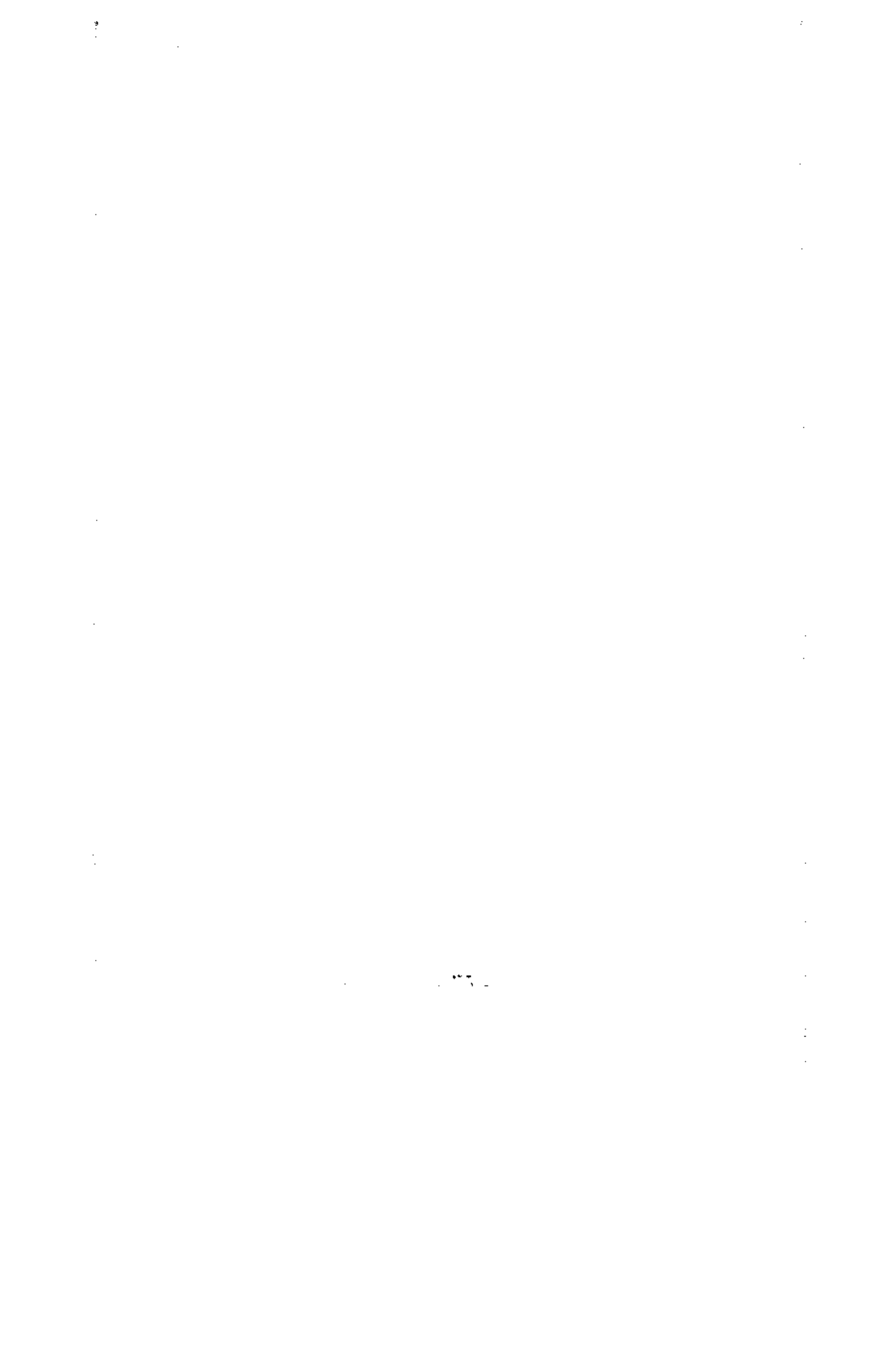
على حين ابتسم الأستاذ (أمجد)، قائلا بسخرية:

ـ يا له من رومانسي.. سفاح! ويدعى (شادي)!!

***

١٩٩٦

الأرضي



أخذت أتصفح الملف الذي بين يدي، وعيناي تلتهمان كل ما جاء به، من تفاصيل الحادث.. وأقوال الشهود.. وبيانات كل من المتهم والقتيل.. أو المتوفى - كما يؤكد الجميع - بالإضافة إلى تقرير الطبيب الشرعي.. ثم رفعت عينيّ إلى المتهم الماثل أمامي، أرمقه باهتمام.. على حين أخذ هو الآخر يرمقني بدوره.. بعينيه الواسعتين.. العميقتين.. المخيفتين..

وعلى شفتيه.. ارتسمت تلك الابتسامة المستهترة.. الساخرة.. التي كادت تدفعني لأن أهب واقفا.. وأنقض عليه.. لأكيل له لكمة تعارف ساحقة.. تطيح بأسنانه الصفراء هذه.. فلا يغتر بعدها بطول قامته، ولا بعضلاته المفتولة ثانية.

إلا إنني تراجعت في اللحظة الأخيرة.. وسألته بهدوء:

ـ إذن.. فأنت لم تقتله؟

مال نحوي، واستند براحتيه إلى سطح مكتبي.. ثم سألني متهكما: ـ كيف أقتله يا (باشا).. بالريموت كونترول؟!

عدت أتصفح الملف، متجاهلا إياه.. محاولا العثور على ثغرة، أنفذ من خلالها إلى حقيقة ما حدث.. لكن ذلك بدا لي شبه مستحيل!

كل ما رواه الشهود يؤكد أن (سيد عبد الحفيظ) - المتوفى - كان يسير شارد الذهن ثم اصطدم بالمتهم في أثناء سيره..

وبدلا من أن يعتذر (سيد) له.. أو حتى يتركه ويمضي إلى حال سبيله.. أخذ يسبه بألفاظ تذيب جليد القطبين،كأنما هو المخطئ! بينما وقف المتهم يرمقه بازدراء.. دون أن يفوه ببنت شفه، يدافع بها عن نفسه ضد ذلك المعتوه، ووجهه - وجه المتهم - يطفح بالغضب.

وكعادة الناس في قطرنا الحبيب.. نسي كل منهم ما كان يشغله.. وأحاطوا بهما إحاطة السوار بالمعصم، محاولين تهدئة ذلك الأحمق الذي يسب رجلا ضعفه حجما!

وفجأة! صمت (سيد).. وأمسك بذراعه اليسرى، وقد فغر فاه، وجحظت عيناه، ثم أطلق شهقة قوية.. وسقط كالحجر!

من ثم ألقت الشرطة القبض على المتهم، وبدأ التحقيق.. ثم أتى تقرير الطبيب الشرعي يؤكد ما توقعه الجميع.. أزمة قلبية مفاجئة، نتيجة الانفعال الزائد، أودت بحياة المعتوه في الحال!

إلى هنا ويبدو الأمر عاديا، من الممكن حدوثه في أي وقت وأي مكان، مادامت الدنيا عامرة بالحمقى.. لولا شهادة أحد الشهود التي لم يعرها أحدهم أدنى اهتمام، واعتبروا صاحبها مجرد معتوه آخر فحسب..

هذا الشاهد يقسم أنه - بينما كان كل الشهود يحدقون في (سيد) حين أصابته الأزمة- رأى عينيّ المتهم تتوهجان بضوء أحمر عجيب.. والغضب على وجهه يكشر عن أنيابه..

وكما سبق أن ذكرت، لم يهتم أحدهم بهذه الشهادة.. إلا أنا..

أنا الوحيد الذي كنت أشعر بأن هذا الذي يقف أمامي له يد فيما حدث.. وأنه ليس بشريا على الإطلاق!!

وكأنما قرأ هذا الشيء ما يدور برأسي.. فقد اتسعت ابتسامته أكثر.. وهو يقول لي:

ـ اطمئن يا (باشا).. أنا لست من سكان المريخ.. أنا أرضي!

أهو مجرد تخمين؟!

ربما!

لكني واثق أن ما يقف أمامي ليس هو ذلك المحاسب الشاب.. الذي يؤكد زملاؤه في العمل أنه رجل طيب، نزيه، دمث الخلق، خفيف الظل..

مستحيل.. هذا السمج خفيف الظل!!

إلا إنني لم أكن أملك سوى أن...

"يخلى سبيل المتهم بلا ضمانات!"

***

لكني سأراقبه بنفسي..

كذا اتخذت قراري، بعد أن أمرت بالإفراج عنه، وحفظت عنوانه عن ظهر قلب..

وفي الليلة التالية.. كنت انتظره أسفل تلك البناية التي يقيم بها.. وكانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة مساء.. عندما خرج من البناية، متجها بخطوات واسعة إلى الشارع الرئيسي.. فغادرت سيارتي وتبعته، محاذرا ألا يراني..

واستمرت المطاردة، حتى انحرف فجأة في شارع جانبي، ضيق، مظلم.. فعدوت خلفه، وانحرفت بدوري في ذات الشارع..

وكما هو متوقع، لم أجده..

وبينما أنا أفكر في كل الاحتمالات الممكنة.. فوجئت بصوت يسألني ساخرا: -- هل تبحث عني أيها البشري؟

التفت ببطء، ورأيت ما يؤكد ظنوني.. كان ذلك الشيء يقف هناك.. وقد أحاطت بجسده هالة من ضوء أحمر مخيف.. وقلت بصوت مبحوح:

- إذن فالأمر كما توقعت.. أنت لست بشريا!

قال باحتقار: - بكل تأكيد أيها المتخلف!

ابتلعت إهانته، كمن يبتلع قنفذا.. وسألته متهكما:

ـــ من أي الكواكب أتيت إذن؟! من (كريبتون)؟!

أجابني بغضب: ــ أنا أرضي أيها القذر، هل تفهم؟! أنـــا أرضي!

صحت في غضب أشد، وقد فرغ صبري: ــ لست قذرا يا بالوعة المجارى الحمراء.. فلا تحاول العبث معي!

هتف بثورة، وهو يندفع نحوى طائرا ــ حقيقة لا مجازا:

ــ ومن تكون أنت حتى أعبث معك، أيها التافه؟!

وقبل أن تبدر مني حركـــة واحـــدة، أحـــاطني بذراعيـــه المفتولتين، مواصلا الصراخ: ــ أنا أرضي.. أرضي!

وغاص بي إلى باطن الأرض، وأنا أطلق صرخة ألم مرعبة.

***

مهلا.. أرى بعضكم يسألني.. كيف رويت لكـــم هـــذه القصة والمفترض الآن أن أكون في أعماق الأرض.. لا يعلـــم بمصيري إلا الله..

الأمر بسيط جدا.. لا.. ليس حلما..

كل ما هنالك إنني..

صرت أرضيا!!

***

١٩٩٨



انتحار كاتب



"سيدي المحقق.. تحية طيبة وبعد..

معذرة.. أعلم أنني بانتحاري المفاجئ هذا، تركت لكم لغزا بلا حل!

خاصة وأن إقدامي على الانتحار ليس له مبررات واضحة.. بل ليس له مبررات على الإطلاق!

لذا.. أرجو من سيادتكم ألا ترغقوا أنفسكم في البحث عن الأسباب التي دفعتني إلى الانتحار..

لقد انتحرت وانتهى الأمر..

صلاح"

انتهى المفتش (كمال محمود) من قراءة الرسالة السابقة، والتي وجدها على سطح مكتب الأستاذ (صلاح عبد الرحمن)، المؤلف البوليسي الشهير.. ثم ألقى نظرة حزينة، صامتة، على جثة ذلك الأخير، الذي سقطت رأسه على سطح مكتبه، حيث ترك رسالته.. بعدها التفت إلى شاب في العقد الثالث من عمره، يقف خلفه مباشرة.. وهو يبكى بصوت مسموع، مرددا من بين دموعه:

ـــ لم فعلت ذلك يا عماه؟! لم فعلت ذلك؟!.. إلى من تتركني؟!.. لم يكن لي سواك بعد أبي وأمي.. وها قد رحلت أنت أيضا وتركتني وحدي.. لماذا؟! لماذا؟!

كانت حالة الفتى تدعو للرثاء.. إلا أن (كمال) سأله بخشونة متعمدة:

ــ متى حدث ذلك؟

أجابه منتحبا:

ــ لست أدري بالضبط.. لقد عدت من المعهد مرهقا.. فوجدته جالسا هنا كعادته.. يكتب رواية جديدة.. فألقيت عليه التحية.. ثم أخبرته أنني سأصعد لأحظى بقسط من النوم.. في غرفتي بالطابق العلوي.. وعندما أستيقظ سأهبط وأجلس معه.. حتى يأخذ برأيي فيما يكتبه..

فلقد كان ــ رحمه الله ــ معتادا على أن يتلو عليّ كل ما تخطه يده.. حتى أخبره برأيي فيه.. بصفتي ممثلا لشباب جيلي.. الذين كان يكتب لهم هذه الروايات البوليسية..

إلا أنني هبطت بعد نوم ست ساعات كاملة.. لأجده كما تراه الآن.. وأمامه هذه الرسالة التي بين يديك.. فأسرعت أتصل بكم قبل أن تقتلني الصدمة.. آه.. واعماه.

عاد (كمال) يلتفت إلى موضع الجثة متجاهلا نحيب الفتى.. وأحصى محتويات المكتب بنظرة واحدة.. قبل أن يتناول (أجندة مكتب) وضعت على سطحه، ويلقي نظرة على صفحاتها.. ثم يتأمل الرسالة برهة من الوقت.. وعقله يعمل كألف ماكينة ألمانية.. بعدها سأل الفتى، دون أن يلتفت إليه:

ـــ هل تعرف يا (سامح) أين كان عمك يحتفظ بالمخطوطات الأصلية لرواياته؟

أجاب (سامح)، وقد فاجأه السؤال:

ـــ نـ... نعم.. أعرف!

ـــ إذن يمكنك أن تحضر لي إحدى رواياته.. المكتوبة بخط يده؟

تردد (سامح) للحظات، قبل أن يقول:

ـــ حسنا.. لحظة واحدة!

ثم اتجه إلى المكتبة الضخمة، التي تشغل جدارين كاملين من حجرة المكتب.. وتناول ملفا متوسط الحجم، من بضعة ملفات استقرت هناك.. ناوله للمفتش (كمال)، الذي طالعه بنظرة سريعة، فتألقت عيناه ببريق غاضب، لم يدم سوى لحظة، ثم انطفأ وعادت ملامحه إلى هدوئها من جديد.. قبل أن يلقي بالملف على المكتب، ويتأمل (سامح) بنظرة فاحصة طويلة، جعلته يتساءل بارتباك:

ـــ ماذا هناك يا سيدي؟!

ظل (كمال) صامتا لبرهة.. ثم سأله بغتة:

ـــ في أي معهد تدرس يا فتى؟!

ـــ ففف... في المعهد العالي للفنون المسرحية!

تألق شبح ابتسامة ساخرة، على الجانب الأيمن لفم (كمال)، قبل أن يسأله ببرود:

ـــ قل لي يا (سامح).. هل كان عمك ـــ رحمه الله ـــ يعاني من مرض ما؟

تلعثم (سامح) قليلا:

ـــ نـــ... نعم.. كان مريضا بالقلب!

ـــ إذن فلابد أنه كان يتناول دواء ما، كأقراص النتروجلسرين مثلا.. أليس كذلك؟

غارقا في عرقه، أجابه (سامح):

ـــ بـــ... بلى!!

ثم أردف، متسائلا:

ـــ هل تعتقد أن أحدهم قد قتله.. ثم اصطنع هذه الرسالة؟!

ابتسم (كمال) بسخرية، مجيبا:

ـــ على العكس.. لقد صرت متأكدا تمام التأكد أن الأستاذ (صلاح) ـــ رحمه الله ـــ هو بنفسه.. وبمطلق حريته.. وبكامل إرادته.. الذي كتب هذه الرسالة.

وصمت قليلا.. قبل أن يقترب بوجهه من وجه (سامح)، مستطردا:

ـــ أين مخطوطة الرواية الجديدة، التي كان عملك يكتبـــها، عندما عدت من المعهد يا فتى؟

سرى التوتر في جسد (سامح).. وهو يتمتم بتردد:

ـــ لست أدري.. ربما.. ربما..

قاطعه (كمال) بصرامة مخيفة:

ـــ ربما هي الآن في صندوق القمامة، محترقة عن آخرهـــا.. أليس كذلك؟

انهار (سامح) هاتفا، وجسده يرتجف بشدة:

ـــ سأعترف.. سأعترف بكل شيء.

انقض عليه (كمال).. وجذبه من ياقة قميصه.. صائحا في غضب:

ـــ لم قتلته يا فتى؟!.. لم؟!

أجابه (سامح) باكيا:

ـــ لأنه رفض أن يمنحني نقودا تكفي احتياجي يا سيدي.

هتف (كمال) ساخطا:

ـــ احتياجك إلى المخدرات.. هه؟

ـــ أجل.. إهيء إهيء.. سامحني يا عماه.. لقد دفعـــتني إلى ذلك.

دفعه (كمال) بعنف إلى رجاله ليسوقوه إلى مصيره المحتوم.. قائلا له:

ـــ اذهب.. لا سامحك الله.

وبينما كان رجال الشرطة يقودون (سامح) إلى خارج الحجرة.. اقترب الرائد (ثابت) مساعد المفتش (كمال) من ذلك الأخير، وسأله بانبهار:

ـــ كيف؟!.. كيف علمت أنه قتله يا سيدي؟!.. بل كيف تمت الجريمة ذاتها؟!

تنهد المفتش (كمال) بأسى.. ثم قال:

ـــ لقد كان الفتى مخطئا يا (ثابت)، عندما اعتقد أن روايات الأستاذ (صلاح عبد الرحمن) ـــ رحمه الله ـــ قاصرة على شباب جيله فحسب.. فأنا من أشد المعجبين برواياته، وأتابعها بشغف.. وأعلم جيدا أن مثل ذلك الرجل لا ينتحر لأي سبب كان.. فلقد كان ـــ رحمه الله ـــ شديد الإيمان بالله (عز وجل).. وطالما لمست ذلك من خلال أحداث رواياته الرائعة.. ولكنه كانت له عادة غريبة..

كان دائما ما يسمي إحدى شخصيات رواياته باسمه الأول (صلاح)!

ولقد شعرت فور رؤيتي لهذه الرسالة.. التي وجدناها بجوار جثته.. أنها إحدى صفحات روايته الجديدة.. فلقد كتبها بخط يده حقا.. ولكنه لم يكن يقصد بها نفسه.. بل كان يقصد هذه الشخصية.. التي انتحرت لسبب ما، تبعا لأحداث الرواية.

ولقد انتهز (سامح) هذه الفرصة.. عندما قرأ له عمه مخطوطة الرواية.. ودبر لجريمته.. فأبدل أقراص النتروجلسرين التي كان يتناولها عمه.. لتخفيف آلام القلب.. بأقراص الأفدرين المميتة.. ولقد أدى الأفدرين عمله جيدا.. وأصاب الأستاذ (صلاح) بسكتة قلبية فور تناوله إياه.

ثم سارع (سامح) بوضع هذه الرسالة أمام جثته — ليوهمنا أنه انتحر — وأحرق باقي مخطوطة الرواية بعدها.

ولقد تأكدت من هذا عندما وجدت أن نوع الورق الذي كتبت عليه الرسالة.. من نفس نوع الورق الذي كان يستعمله القتيل في كتابة رواياته، وليس من ورق (أجندة المكتب).. بالرغم من أنه مات على مكتبه.

وكذلك عندما لاحظت أعراض الإدمان بادية على وجه القاتل.. وعلمت أنه الوريث الوحيد لعمه.. فاتجه شكي إليه على الفور.

بعد ذلك.. أسرع (سامح) يتصل بنا.. ويستخدم موهبته الفاشلة في التمثيل المسرحي.. ليحصل على دور البطولة على

مسرح جريمته.. ويقوم بتمثيل تلك المسرحية القذرة التي رأيناها معا..

وكادت خطته أن تنجح...

لولا إرادة الله (سبحانه وتعالى).. وعدالة السماء.. التي جعلتني أنا بالذات أتولى التحقيق في هذه القضية التي راح ضحيتها كاتبي المفضل، وأستاذي في فن التحري، واقتفاء الآثار.. لأقتص له من قاتله..

فهل يتعظ المجرمون؟!

١٩٩٨

لو يعلم الأدباء

"حكمت المحكمة حضوريا.. على المتهم (وحيد عاطف عبد العظيم).. بالأشغال الشاقة المؤبدة.. وذلك لـــ.........!"

"لاااااا.."

أطلقها (وحيد) عالية مدوية.. في قاعة المحكمة.. من داخل قفص الاتهام.. مقاطعا القاضي الذي التفت إليه — هو وجميع من في القاعة — بدهشة بالغة.. فقد ظل صامتا طيلة فترة محاكمته.. لم ينبس ببنت شفه.. ولم يحاول الدفاع عن نفسه قط.. ولو بكلمة واحدة.. كأنما استسلم لمصيره مهما بلغت بشاعته.. ولم تعد به أية رغبة في الحياة!

واستطرد (وحيد) بأسى بالغ، وندم شديد:

— لا يا سيدي القاضي.. لا.. لا تحكم عليّ بالسجن ولو لمدى الحياة.. حتى ولو بقى لي من العمر ألف عام.. بل احكم عليّ بالإعدام.. اقتلوني كما قتلتها.. أنا لا أستحق الرحمة.. ولكني أطلبها لنفسي.. ارحموني واقتلوني.

ولم يلبث أن علا صوت نحيبه في قاعة المحكمة.. وأطرق برأسه أرضا.. ممسكا بكلتا يديه قضبان القفص.. حتى لا يسقط من فرط الإعياء والحزن.

تأمله القاضي برهة من الوقت، وقد تركت كلماته في نفسه أثرا عجيبا، لم يعتده من قبل.. ووجد لسانه يتحرك في فمه، سائلا إياه:

ـــ لم قتلت زوجتك يا (وحيد) مادمت نادما على قتلها إلى ذلك الحد؟!

تكلم يا رجل.. دافع عن نفسك.. أنر لي الطريـــق حـــتى أحكم بالعدل!

رفع (وحيد) عينين حمراوين دامعتين إلى القاضي.. وبعـــد صمت ثقيل.. تكلم بمرارة يعجز عن وصفها القلم، فقال:

ـــ كانت البداية منذ زمن بعيد.. لا يقاس بالسنين.. في يوم أسود من (ثقب أسود).. نظرت في المرآة ـــ الشيء الوحيد في دنيانا الذي لا يعرف النفاق! ـــ وأدركت لماذا يتجنب زملائي من الصبية اللعب معي، أو الحـــديث إليّ، أو حـــتى النظـــر في وجهي!

ومن ينظر إليه منهم ينظر باستياء، أو بـــسخرية، أو ربمـــا بإشفاق!

والكل يعاملني بلا مبالاة.. كأنما لا وجود لي!

فأنا كنت، ومازلت ـــ كما ترون ـــ دميم الوجه، نحيـــل الجسد، ضعيف البنية إلى حد الهزال..

ولم يشفع لي تفوقي الدراسي في أن أحظى بقدر ـــ ولـــو ضئيل ـــ من اهتمام زملائي.. وإشراكي معهم في لهوهم.. أو جدهم.. ولو حتى بسماع رأيي دون الأخذ به!

وكنت أحترق وأنا أشاهدهم يلعبون (كرة القـــدم) مـــن بعيد.. بعد أن ركلوني بكل قسوة خارج الملعـــب لكـــوني لا أصلح للعب.. ببنيتي الضعيفة التي لا تساعد على الالتحام..

أو ـــ على أقصى تقدير ـــ يوقفوني (حـــارس مرمـــى).. عندما يكون عددهم فرديا.. ويحتاجون لاعبا ما ـــ أيا كان ـــ لإكمال الفريقين.. وبدء اللعب.. ولم أكن أمارس حقـــي في اللعب معهم كما أشاء إلا عندما تكون الكـــرة كـــرتي.. ولا توجد لديهم كرة غيرها..

ولكن نفسي لم تكن لتحتمل كل ذلك العذاب.. والهوان.. والسخرية.. و.. والذل..

فانطويت.. وانزويت.. وبت وحيدا اسمًا وصفة..

لم أكن أحدث أحدا إلا إذا حادثني.. ودائما مـــا يكـــون حديثه معي لطلب شيء ما يريده مني.. أو عندما لا أســـتطيع تقديمها إليه.. أو.. أو لمجرد التهكم والسخرية.. والبحث عـــن مصدر للتسلية!

ومع الوقت.. والبركان النفسي لا يخمد بداخلي.. فقـــدت مزيتي الوحيدة.. تفوقي الدراسي..

صرت في الربع الأخير من قائمة فـــصلي بعـــد أن كنـــت أتصدرها!

و لم أجد ما أقتل به وحدتي سوى اللعنة!

اللعنة التي من الممكن أن تكون نعمة كبرى.. لأي شخص سوي يمارسها بحكمة.. ولكني أبدا لم أكن في يوم من الأيـام شخصا سويا!

أتسألني ما هي تلك اللعنة يا سيدي القاضي؟!

إنها القراءة!!

أجل.. هي القراءة من فعلت بي كل ذلك، وجعلتني أرتكب كل ما ارتكبت من حماقات طوال حيـاتي.. وآخرهـا قتـل زوجتي، وحبيبتي المسكينة.

وصمت لحظات.. أطلق فيها لدموعه العنـان.. قبـل أن يواصل حديثه باكيا:

ـ كنت لم أعد راغبا في شيء من العلم أو المعرفة.. بعد أن فقدت الرغبة في الحياة ذاتها.. لم أكن أبغي سـوى السـلوى والنسيان.. وقتل وقت الفراغ.. بعد أن صارت حياتي كلها...

فراغ في فراغ!

وكان خير ـ و لم أدر وقتها أنه شر ـ صـديق لي هـو الأدب.. قراءة الروايـات.. والمـسرحيات.. والقـصص.. والأشعار.. وكل ما يتعلق بالأدب وفروعه المتعددة..

وكان أكثر ما تعلقت به من فروعــه.. فــرع الروايــة.. وبالتحديد (رواياته المغامرات)..

تلك التي نعرفها جميعا.. وشاهدناها مرارا علــى شاشــتي السينما والتليفزيون.. في أفلام (جيمس بوند) الأســطورية.. ومسلسلات مثل (القديس) وغيرها..

حيث يتصدى البطل لقوى الشر جميعا.. فيقهرها..

حاملا فتاته بين ذراعيه القويتين.. مخترقا بها الأهوال مهمــا كثرت.. وعظم خطرهــا.. لا يجــبن.. ولا يتراجــع.. ولا يستسلم..

تزين ثغره الجميل ابتسامة ساخرة.. متحدية..

تضفي على وجهه الوسيم بريق الشجاعة والاعتزاز..

ينعكس على قامته الممــشوقة.. وعــضلاته الفولاذيــة.. الصلبة..

وجدت فيها العزاء عن حياتي الخاملة، الباردة، المملة..

ونفوري من الناس، ونفورهم مني..

كنت أجد في قوة البطل عوضا عن ضعفي.. وفي وســامته عوضا عن قبحي.. وفي شجاعته عوضا عن جبني..

وفي فتاته الفاتنة الرقيقة..

صورة لفتاة أحلامي!

حتى حدثت الكارثة.. ونسيت نفسي!

بدأت أملّ الخيال.. وأحاول نقله إلى الواقع..

بدأت أتمنى أن أصير بطلا مثل أبطال الروايات التي أعشقها.. ولم تزد محاولاتي عن التمني دون السعي لتحقيق ما أتمناه..

وظللت أحلم، وأحلم، وأحلم.. ولا شيء غير الحلم..

حتى التحقت بالكلية وبدأتُ الدراسة الجامعية..

وبين أروقة كلية الآداب أخذت أبحث عن فتاتي التي ستشاركني مغامراتي الوهمية!

وكما يقول النص.. فلابد أن تكون فتاة فاتنة.. رشيقة.. رقيقة.. تسبي نظراتها قلوب الرجال من الوهلة الأولى..

ولك - سيدي القاضي - أن تتصور ما واجهته أثناء بحثي العقيم عن ضالتي المنشودة..

منتهى اللامبالاة، والسخرية، والإهانة، والتقزز، والإشفاق.. وأحيانا.. الرعب!!

حتى قررت التنازل عن بعض حلمي وليس عنه كله.. ليمكنني إحداث التوازن.. وكما يقولون: (نصف العمى، ولا العمى كله!)

وواصلت بحثي عن فتاتي الرقيقة.. الرشيقة.. الـ... القبيحة!!

أجل.. لقد قررت أن استبدل صفة الفتنة والجمال بصفة أخرى معنوية.. حب الأدب.. وعشق الروايات!

ووجدتها!

نسخة كروموسومية مني!!

نفس القبح، والنحول، والضعف، والهزال!

كل ما يدلك على كونها أنثى.. هما رداؤها وشعرها الطويلان!

لكنها كانت أرق من نسمة الصيف، وألطف من عبير العطور الفرنسية.. وعاشقة للأدب والروايات..

خاصة (روايات المغامرات)!

وبعينيها الضيقتين نظرة حزن لا تمحى!

بعد حوار قصير.. أصبحت غارقا في حبها حتى النخاع..

أو هذا ما حاولت إقناع نفسي به!

واستمرت اللقاءات والحوارات.. حتى عرضت عليها الزواج فوافقت على الفور.. وتزوجنا.. وعشت معها سويعات من السعادة.. بعد عصور كاملة من المرارة، والألم، والحزن..

ثم أتى الطوفان.. ليدمر كل ما حاولنا إرساءه من قواعد لحياة جديدة، سعيدة، بعيدة عن أحزان الماضي، وأشواك الحاضر..

طوفان من الندم، والشك، والغيرة العكسية.. اجتاح حياتنا فدمرها، وأحالها جحيما لا يطاق!

كنت أشتعل حينما أراها تنظر بإعجاب إلى رجل وسيم، أو آخر قوي، أو ثالث مشهور.. وكانت تثور إذا رأت في عينيّ نظرة افتتان بامرأة فاتنة، أو أخرى جميلة، أو ثالثة عادية..

وكان كلانا يتوهم ما يراه في عينيّ الآخر!

حتى جاءت الليلة الملعونة.. التي فاض بها الكيل وبلغ السيل الزبى.. فواجهتني بشكوكها، واتهمتني بخيانتها..

وعندئذ.. تملكتني رغبة سادية متوحشة مجنونة، وأردت أن أثبت لها — كذبا — أني رجل تتمناه كل نساء الأرض!!

أو على الأقل امرأة واحدة أجمل منها!

فاعترفت لها بخيانات لم تحدث.. وادعيت — بكل وقاحة — أنني على علاقة بعدة نساء.. أقبحهن تعد ملكة جمال إذا ما قورنت بها.. وأنني لن أقضي بقية عمري بجانب امرأة تصلح كدمية لبيت الرعب بالملاهي!

وأخذت المسكينة من هول الصدمة.. فصمتت برهة.. قبل أن ترد الصفعة.. وتسمعني أقسى كلام سمعته في حياتي كلها..

وصرعني الغضب.. ووجدت نفسي أنقض عليها بقـــوة لم أعدها في جسدي من قبل.. فأطبقت على عنقها النحيل بكلتا راحتيّ واعتصرته بكل قسوة.. و لم أتركها إلا جثة هامدة..

عندئذ.. عندئذ فقط.. أدركت كم كنت أحبـــها دون أن أدري، ومدى ما أوقعته عليها من ظلم بيّن.. فارتميـــت علـــى جثتها أصرخ:

ــ لاااا.. لا تموتي يا حبيبتي.. لا ترحلي.. لا تتركيني.. أنا أحبك.. عودي إليّ.. اللعنة.. اللعنة على أدباء الأرض جميعا.. اللعنة على ذوات الفتنة وذوي العضلات..

اللعنة.. اللعنة.. اللعنة!!

لكن... لا فائدة!

***

١٩٩٨



صورة (الباشا)



أنا أكره الصور الفوتوغرافية!

مهلا.. لا داعي للتهكم..

أجل.. أكره الصور الفوتوغرافية..

لاسيما.. صور الموتى!

لماذا؟! لست أدري!!

ربما لأنها تذكرنا دائما بأحبائنا الغائبين..

الذين ما عدنا نستطيع أن نراهم في عالمنا هذا..

أو.. أو لأنها تقول لنا بسخرية، كلما نظرنا إليها:

ــ صبرا أيها الحمقى.. سوف تلحقون بنا في أية لحظة.. وتتبخر ــ في جزء من الثانية - كل أحلامكم وطموحاتكم بشأن المستقبل!

المهم.. إنني أكرها فحسب.. ولا أطيق رؤيتها أيضا!

إلا إنني مرغم على أن أرى إحداها كل يوم!!

صورة ميت هي.. ويا ليته ميت كنت أعرفه!

حتى أكن له بعض الحب.. أو حتى بعض البغض!

إنها صورة رجل لم أكن أعرفه!

و لم تكن بالتأكيد تسرني معرفته!

فلست أعتقد إنني كنت سأميل لرجل له مثل تلك الملامح القاسية.. والطربوش الأحمر المخيف.. والشارب الغليظ المفتول، الذي يقف عليه الحما.....

لا.. لا داعي لذلك..

الرجل ميت على كل حال!

أراكم تسألونني: من هو؟!

وما الذي يرغمني على رؤية صورته كل يوم؟!

أتودون المعرفة حقا؟!

يالكم من حمقى!!

لا بأس.. إنه.. (كاظم باشا)..

هذا هو كل ما أعرفه عنه!

ما صلتي به؟!

سعادته.. جد (المدام).. زوجتي!

والد والدتها.. السيدة (حماتي)!

وأنا الذي كنت أتساءل عن سر قسوة تلك الأخيرة!!

ههأ! ها قد عرفت!

(باشا) من عهد الملكية البائد.. إقطاعي سابق..

قضت الثورة على جبروته..

وعلى حياته أيضا!

وحرمي المصون تصر ـــ بالطبع ـــ على تعليــق صـــورته اللعينة في ردهة شقتنا.. ولم أستطع بشق السبل إثناءها عمـــا تريد..

وكذا ترون إنني مرغم على أن أرى صورة (المحـــوم) في كل ساعة أقضيها في شقتي.. وعملي ـــ ككاتب قصصي ـــ يجعلني أقضي معظم اليوم في المترل.. لا أبرحه.. وبالتحديد في حجرة المكتب المطلة على الردهة.. وذلك اللعين ـــ مكتبي ـــ يستقر في مواجهة الجدار المشئوم، المعلقة عليه صورة (الباشا)!

أغلق الباب؟! لا.. أنا أكره الأماكن المغلقة!

ثم أن المشكلة ستظل قائمة!

فكلما عبرت الردهة ذهابا أو إيابا.. أرى عينيّ ذلك الوغد ـــ في الصورة ـــ ترمقني بغضب أينما ذهبت!

وأكاد أتخيله سيصرخ في وجهي في أية لحظة.. قائلا:

ـــ يا فلاح.. يا ابن الفلاح.. من كان يتصور ذلك؟!

حفيدة (كاظم باشا) تتزوج من هذا (الخرسيس)؟!

حقا إنها الدنيا.. اسم على مسمى!!

وبعد.. ماذا أفعل في تلك المشكلة؟!

لقد حاولت مرة واحدة أن أتخلص من رؤية وجه ذلك (الباشا).. ولو لبضعة أيام.. وإليكم ما حدث:

ذات صباح.. أخبرتني زوجتي أنها ستذهب لقضاء بضعة أيام عند والدتها، لأنها ــ (حماتي) ــ صحتها على غير ما يرام هذه الأيام.. ربنا يأ.. يشفيها!

وهكذا وجدتني وجها لوجه.. أمام صورة (الباشا)..

وبينما أنا جالس في حجرة مكتبي.. أكتب قصة جديدة..

رفعت عينيّ من على الأوراق، أريحهما قليلا..

صدمتني عيناه القاسيتان .. ووجهه الشرس..

وشرد ذهني.. وأنا أتخيل ما قد يفعله بي عندما يأتي الليل.. وأذهب إلى الفراش!

حاولت طرد هذه الخزعبلات المزعجة.. إلا إنني لم أستطع..

من ثم قررت أن أنزع الصورة من مكانها..

طالما أن زوجتي ليست هنا لتمنعني!

ونفذت القرار..

نزعت الصورة بكل ما في قلبي من غل تجاه صاحبها، وأودعتها صوان ملابس زوجتي.. وأغلقت الصوان بالمفتاح.. بعدها....

شعرت بلذة انتصار كاسحة.. كأنني فزت لتـوي بجـائزة (نوبل) للأدب.. ولم تعد بي رغبة في الكتابة في ذلك اليوم..

فقررت الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة.. بقضاء سهرة ممتعة مع أصدقائي الأعزاء.. رفاق القلم..

وغادرت الشقة..

وفي الثانية بعد منتصف الليل.. عدت إليها سعيدا.. منتفخ الأوداج.. ولم أكد أدلف إلى الردهة حتى....

قفزت من مكاني فزعا.. وارتعدت فرائصي.. وأنا أحدق في صورة (الباشا) المعلقة مكانها في الردهة على ذات الجدار!!

وأخذت أتراجع في رعب.. محدقا في عينيـه الغاضـبتين.. وملامحه المخيفة.. و.. (عادل)!

أجفلت.. والتفت بـسرعة أرمـق زوجـتي.. ووجههـا الغاضب..

وسمعتها تقول: ــ عدت مبكرا! لماذا لم تبت عند من كنت عندهم؟! أو من كنت عندها؟!

تنفست الصعداء.. وقلت حينما عاد لي صوتي:

ــ حرام عليك.. لقد كنت ساهرا مـع أصـدقائي مـن الكتّاب.. ولكن لمَاذا عدت أنت؟!

ــ طبعا لم تكن تريد عودتي! لقد وجدت أن وجودي مـع والدتي أصبح غـير ذي فائـدة.. لأنها ستـسافر غـدا إلى (الإسكندرية)، لتغيّر جو عند أختي (سعاد).

ـــ تسافر وتعود بالسلامة.

مضت برهة من الصمت..ـ نظرت خلالها زوجتي إلى صورة (الباشا).. قبل أن تسألني بلوم متغطرس:

ـــ لماذا نزعت صورة جدي (الباشا) من مكانها، ووضعتها في صوان ملابسي؟!

ـــ آ.. كنت أريد مشاهدتها عن قـــرب.. ثم نـــسيت أن أعلقها ثانية.

نظرت إليّ غير مصدقة.. قبل أن تهز رأسها متعجبة.. وتتجه إلى غرفة نومها.. قائلة: ـــ طبعا.. إن غاب القط!!

تجاهلت تعبيرها السوقي.. الذي يتنافى مع أرستقراطيتها..

والتفت أتأمل صورة (الباشا)..

وخيل إليّ.. أن ابتسامة متشفية..

ترتسم على شفتيه!

***

من مذكرات مريض نفسي..

المشرف على الحالة /

د. رمزي عبد الدايم

١٩٩٨

الحرباء

فجأة!

وجد نفسه في تلك الحجرة!

يد غليظة فتحت الباب.. ودفعته بعنف..

ليسقط على أرضيتها الصلبة..

ثم أغلقته خلفه!!

نهض واقفا.. تطلع إلى الحجرة في رهبة..

كانت خالية من الأثاث.. واسعة إلى درجة مرعبة..

ليس بها سوى مائدتين مستديرتين..

إحداهما..

جلس حولها مجموعة من الكهول و الشيوخ..

منهمكين في عمل ما!

والأخرى..

جلس حولها بضعة فتيان وفتيات.. في مثل سنه..

يتبادلون حديثا.. يبدو أنه شيق للغاية..

إذ أنهم كانوا يضحكون بصوت عال..

بين الفينة والفينة!

شعر بالخوف!

التفت خلفه.. وأخذ يدق الباب بكلتا قبضتيه..

صارخا:

"افتحوا لي.. أخرجوني من هنا!"

لكن.. ما من مجيب..

عاد يلتفت إلى الحجرة.. يتأملها من جديد..

رأى بابا آخر في نهايتها..

لكنه يبدو أكبر من الأول..

ركض نحوه بلهفة..

اتضح له أنه بابان!!

حاول فتح الأيمن.. لكنه لم يستجب..

مد يده المرتجفة إلى مقبض الأيسر..

أدار المقبض.. ففتح الباب..

لكنه لم يكد يتبسم.. حتى وجد أمامه وحشا خرافيا.. يستعد للانقضاض عليه!!

تراجع برعب.. وأغلق الباب بإحكام..

شعر باليأس!

رفع عينيه.. فرأى أعلى البابين رسما مخيفا لجمجمة بشرية!

زاد رعبه..

استدار يتأمل المائدتين ثانية..

شعور غامض جعله يتجه إلى مائدة الكبار..

رغم أنه كان يفضل مائدة الشباب!

وجد مقعدا خاليا.. فجلس..

رمقه أصحاب المائدة بازدراء ..

ثم عادوا ينهمكون في عملهم من جديد..

وجد أمامهم مجموعة هائلة من المكعبات..

يبنون بها بناء غريب الشكل.. معقد التصميم!

حاول تقليدهم..

تناول مكعبا.. وهم بوضعه في البناء..

تنبهت حواسهم..

وتابعت عيونهم يده الممسكة بالمكعب..

لتعرف.. أين سيضعه؟!

وضعه فيما ظنه المكان الأمثل..

إلا أن أحدهم نهره هاتفا:

"ليس هكذا!"

وضعه في مكان ثان و..

"ليس هكذا!"

في مكان ثالث..

"ليس هكذا!"

رابع..

"ليس هكذا!"

شعر بالحنق!

ترك المكعب على المائدة..

وانسحب في هدوء..

في تردد ــ يفوق (هملت) ــ اتجه إلى المائدة الأخرى..

لم يجد مقعدا خاليا..

ظل واقفا..

كانوا يتحدثون بلغة عجيبة، لم يسمعها من قبل!!

حاول فهمها.. حاول.. حاول..

لكن لا فائدة..

شعر بالغضب!

صرخ بقهر:

"ماذا تقولون؟!"

لم يلتفت إليه أحد..

بضيق شديد.. اتجه إلى أحد الجدران..

جلس على الأرض.. مسندا ظهره إلى الجدار..

وجد بجانبه مجموعة روايات.. بدأ يقرأ..

قرأ رواية.. روايتين.. ثلاث.. عشر روايات..

شعر بالأمل!

رأى نافذة في الجدار المستند إليه..

هب واقفا..

حاول بلوغها..

قفز عاليا..

قفز..

لكنها كانت عالية..

عالية..

عالية..

شعر بالحزن!

بإرهاق شديد.. عاود الجلوس..

رأى على أرضية الحجرة.. حرباء صغيرة..

ميزها بصعوبة من لون الأرضية..

المماثل للونها..

رمقها بنظرة حانقة..

شعر بالحسد!

١٩٩٨

من الجاني؟!



ابتسامة واثقة ترسم خطوطها على وجهه، وهو يخطو نحـــو سيارته (المرسيدس) الفاخرة، وشعور جارف بالسعادة يغمره، ويملك عليه جميع مشاعره الأخرى..

لكنه ما أن استقر داخل سيارته، وأدار محركها اســـتعدادا للانطلاق، حتى رأى في مرآتها عينين غاضبتين، ترمقانــه مـــن الأريكة الخلفية!

***

كان مصدر سعادته أنه قد انتبه لنفسه قبل أن يفوته قطـــار الزواج، ويضيع كل ما بناه خلال أربعين عاما هباء، والـــسبب في يقظته المفاجئة من سباته العميق كان خطاب..

خطاب جاءه بالبريد العادي، على مقر عمله بالكلية، مـــن طالبة من طالباته، تشكوه إلى نفسه، وتتهمه بأنه قاس القلـــب، متحجر المشاعر، إذ لم ينتبه إلى حبها له، وإعجابها بشخـــصه، اللذان كانا يفصحان عن نفسيهما في كل كلمة تتبادلها معـــه، وكل سؤال تلقيه على مسامعه، طوال الأشهر الخمسة الماضية!

لكنه بدا لها كالحصن المنيع، الذي لا يجرؤ أحد مهما كانت شجاعته على الاقتراب منه، بسبب ما يراه الناس المحيطون بـــه، من تحصينات الصرامة، والهيبة، والوقار، وعدم الابتسام حتى في أكثر اللحظات مرحا، وسرورا..

لذا فلم تجد أمامها سوى أن ترسل له تلك الرسالة، وهـــي تضع يدها على قلبها، تصارحه فيها بمشاعرها تجاهه، وترجوه من خلالها أن ينتبه إليها.. حتى وإن لم يحبها، يكفيها أن يعرف أنها تحبه!

ولم توقع باسمها في نهاية الخطاب، وإنما كتبـــت الحـــروف الأولى منه فحسب، وتركت له مهمة التعرف عليها..

لكنه في تلك اللحظة، كان يرى عينين غاضبتين تحدقان في مؤخرة عنقه، وفوهة مسدس باردة ــ مزودة بكاتم للصوت ــ تلتصق برأسه!

***

حصل على البكالوريوس بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، مما أهله إلى العمل بالكلية كمعيد.. فاندفع يعمل ويعمل بكل مـــا استطاعه من جهد، حتى حصل على الماجستير ثم الـــدكتوراة، وصار أستاذا بنفس الكلية التي كان بالأمس طالبا بها.. يعينه في ذلك تشجيع أساتذته، وإعجابهم بنبوغه وعبقريته..

ولم يدر في ذهن واحد منهم أن ذلـــك النبـــوغ، وتلـــك العبقرية، مبعثهما الغضب!

الغضب والحنق على المجتمع، اللذان جعلاه يكسو وجهه بقناع دائم من الصرامة، والهيبة، والوجوم، و.......

والحزن!

وأن يتفوق، ويتفوق، ويتفوق حتى يصل إلى ما هو عليه الآن..

لكنه الآن يرى سبابة تستعد لضغط الزناد، واضعة حدا لتفوقه!

***

حتى انتبه..

انتبه على ذلك الخطاب، الذي وصله من تلك الطالبة.. انتبه إلى أنه قد أفنى عمره كله في العلم والتحصيل، ولم يفعل ما يجعل لوجوده معنى..

انتبه إلى أنه لم يتزوج!

وبحث عنها، وعرفها.. وطار قلبه فرحا..

إذن فما زالت الفرصة أمامه، هاهي ذى فتاة في العشرين من عمرها، جميلة، رقيقة، مهذبة.. تحبه، أو تتوهم أنها تحبه! ولن يرفضه أهلها إذا تقدم لخطبتها.. وقد حدث..

هو ذا يغادر شقة أبيها، بعد أن قرأ معه الفاتحة، وحددا موعد الخطبة، ويركب سيارته (المرسيدس) الفاخرة..

حين رأى العينين الغاضبتين!

***

"من أنت؟!.. وماذا تريد؟!"

قالها في هدوء، لا يخالجه أدنى توتر، حين رأى السبابة الرهيبة تتردد في ضغط الزناد..

"أنا (حسام) يا دكتور (عادل).. (حسام شاكر) تلميذك بالسنة الثالثة في الكلية.."

صوت يموج بالغضب كعينيّ صاحبه.. إنه يعرف هذا الصوت جيدا، فهو لا ينسى أصوات المتفوقين من تلامذته أبدا..

"وماذا تريد يا (حسام)؟!"

"ياله من سؤال! قتلك يا أستاذي.. أريد قتلك!"

"و لم؟!"

"لأنك تسلبني حقي.."

"أنا أسلبك حقك! كيف؟!"

"(سهام).."

"(سهام)؟! وما شأنك بها؟!"

"لقد تعاهدنا على الزواج، منذ أن كنا بالسنة الأولى بالكلية، بمجرد أن يتخرج كلانا ونحصل على عمل مناسب.. إلا أنها فجأة سحبت عهدها لي ـــ بعد عامين من الحب والأحلام الجميلة ـــ دونما سبب واضح.. لكنني لم أقتنع بذلك التراجع المباغت، وظللت أبحث عن السبب الذي دفعها إليه، حتى علمت من زميلة مشتركة لنا أنها تحبك، وأنك ذاهب اليوم لقراءة الفاتحة مع والدها، فقررت قتلك.. فلن أسمح لك أبدا بأخذها مني!"

"ولماذا تقتلني أنا مادمت قد علمت أنها تحبني؟! لماذا لا تقتلها هي؟!"

" لا تحاول أن تثنيني عما انتويت يا دكتور.. المسكينة معذورة إذا توهمت أنها تحبك، بعد أن بهرتها بوسامتك المفرطة، ومركزك المرموق، وذكائك الحاد.."

"ولماذا لا تقول أنها تنظر لثروتي؟!"

"(سهام) لا تفكر بهذه الطريقة يا دكتور.."

"كلهن يفعلن يا (حسام).."

"لا.. أنت من سلبني حقي، وليست هي!"

"بل أنت من يريد أن يسلبني حقي يا (حسام)!"

"أنا؟!"

"نعم أنت.. إنها لي، فأنا أقدر منك على رعايتها وحفظها، وتوفير كل أسباب الراحة والهناء لها.."

"ولكنك تكبرها بعشرين عاما.. أي أنك لو كنت قد تزوجت وأنت في مثل سني، لكان لديك الآن فتاة في مثل عمرها تقريبا، فماذا منعك؟! هل انتظرت كل هذه السنين لتأخذها مني؟!"

"منعني أستاذي.."

"أستاذك؟!"

أخرج من جيب سترته دبلة فضية، ناولها لتلميذه قائلا:

"أترى هذه؟!"

"ماذا عنها؟!"

"كانت في يدي اليمنى منذ عشرين عاما.. أتدرى من صاحبتها؟!"

"من؟!"

"أرملة الدكتور (علاء فخري) رحمه الله.. أستاذي والمشرف على رسالة الدكتوراة الخاصة بي.. كانت زميلتي، وقد تعاهدنا على الزواج.. ولكن فقري حال دون إتمام ما تعاهدنا عليه، فصارت لأستاذي.. كادت الصدمة تقتلني، لولا أن فطنت وقتها إلى إنني لست قادرا على رعايتها، فتناسيت الأمر برمته، وشققت طريقي في الحياة، دون أن أنتبه إلى أنه توجد غيرها، من تصلح لأن تكون زوجة لي، حتى نبهتني (سهام).. إنها سنة الحياة يا (حسام)، فلا تدع الصدمة تقتلك!"

صمت مهيب ساد بينهما، بعد أن ألقى (عادل) عبارته الأخيرة.. قطعه (حسام) بقوله:

"لا يا دكتور.. ليست هذه سنة الحياة.. هناك جيل ما ترك حقه يسلب.. ولا ينبغي أن تدفع الأجيال التالية له ثمن غلطته!"

وازداد توتر إصبعه على الزناد...

١٩٩٩

فندق الشبح



منتصف مارس..

العاشرة والنصف مساءً.. ليلة عاصفة ممطرة..

كنت جالسا كعادتي في قاعة الاستقبال بفندقي الصغير.. الذي يقع على جانب الطريق المؤدي إلى الغابة..

أنتظر ذلك المأفون الذي قد تسول له نفسه القدوم إلى الفندق.. للإقامة في إحدى حجراته لبضعة أيام.. كما كان يحدث في الماضي..

وابتسمت ساخرا، وقد تملكني اليأس بعد طول انتظار.. وأخذت أحدث نفسي، قائلا:

ـ "أي معتوه هذا الذي يأتي إلى هنا.. بعد كل تلك الأقاويل التي ترددت حول الفندق.. وذلك الشبح الذي يجوب حجراته ليلا.. ليذبح النزلاء.. ثم يلقي بجثثهم إلى الغابة القريبة؟!"

وعدت أطرق برأسي ثانية.. وقد اكتسى وجهي بالحزن.. من أثر الحالة التي صرت إليها.. حتى انتفضت فجأة على صوت هادئ، يسألني بلهجة مهذبة:

ـ "معذرة يا سيدي.. هل أنت صاحب الفندق؟"

أسرعت ألتفت جهة باب الفندق.. وقد شملتني الدهشة من قمة رأسي.. وحتى أخمص قدمي!!

ورأيته...

شاب أجنبي الملامح، وسيم الوجه، قوي الجسد.. ذو بشرة سمراء فاتحة، وشعر أسود فاحم.. وعينين عسليين، وذقن عريض، وابتسامة ودود..

وسرعان ما تغلبت عليّ دهشتي، وهرعت لاستقباله بفرحة غامرة، وترحيب حار، وقد تبدل حزني العميق بسعادة جارفة..

وأخبرته أنني صاحب الفندق.. وأني أحيا هاهنا بمفردي.. لكنني أستطيع أن أوفر له كل احتياجاته ومتطلباته..

وعلمت منه أنه سائح مصري.. يدعى (أشرف عبد الصبور).. كان في زيارة للبلدة المجاورة.. للتعرف على عادات شعبي، وتقاليده الراسخة.. بعيدا عن جو المدينة الخانق، وصخبها الدائم.. عندما تبدل الجو بغتة.. وهطلت الأمطار دون سابق إنذار..

فأوى إلى فندقي هذا.. ليبيت فيه ليلته.. على أن يعود إلى المدينة صباحا.. ثم لم يلبث أن سألني السؤال المنتظر......

ـــ "لماذا يخلو فندقك من الرواد؟!"

فأجبته قائلا:

ـــ "يقولون أن به شبح.. يذبح النزلاء ليلا.. ثم يلقي بجثثهم في الغابة!!"

ـــ "هنا أيضا؟!"

ـــ "ماذا يعني سيدي؟!"

ـــ "إنهم يقولون أن هناك شبح آخر.. يقطن في البلدة المجاورة.. ولا يظهر إلا في مثل هذه الليلة من كل عام.. ليلة النصف من مارس!!"

ـــ "ولماذا الليلة بالذات؟!"

ـــ "أخبرني أحدهم.. أن ذلك الشبح لسائح غريب.. قدم لزيارة بلدتهم منذ عشرة أعوام.. في مثل هذا اليوم من السنة.. وعند منتصف الليل أراد العودة إلى المدينة.. فخرجت عليه عصبة من اللصوص يبغون سرقته.. فحاول الدفاع عن نفسه بمدية حادة كانت معه.. لكنهم كانوا كثرة، فمزقوه إربا، وأخذوا كل ما وجدوه معه، وتركوا مديته بجانب جثته.. ثم لاذوا بالفرار.. ومن يومها.. وشبح السائح يجول طرقات البلدة ليلا.. يطرق أبواب الدور.. مدعيا أنه غريب فاتته الحافلة.. ويطلب الإيواء حتى الصباح.. ومن يؤويه.. يستيقظ أهل البلدة

صباحا.. ليجدوه مذبوحا ـــ هو وجميع من في البيت.. ويحدث هذا في ليلة النصف من مارس في كل عام!!"

ـــ "ما أعجب هذا الإنسان!! لو أن كل قتيل قتله اللصوص عاد شبحه ليلا ليذبح الناس.. لخلت الدنيا من الأحياء، وباتت ملهاً ليلياً للأشباح، تلهو فيه حيثما تشاء!"

ـــ "صدقت.."

ثم إنني أعطيته مفتاح حجرته.. وقدته حتى بابها بنفسي.. إذ لم يكن هناك خدم بالطبع.. وبعدها عــدت إلى حجــرتي.. وأخذت أتسلى بالقراءة، حتى أعلنت دقات الساعة عن تمــام منتصف الليل..

فتركت الكتاب الذي كنت أقرأه جانبا.. وتناولت ذلــك الخنجر الأنيق.. ونهضت متجها إلى باب حجرتي، و.....

فتحت الباب.. لأجده أمامي، وبيده مديته الحادة، وعلــى وجهه ابتسامة شرسة..

يالي من غبي!!

كيف لم أنتبه إلى ملابسه الجافة عندما دخل الفندق؟!

اللعنة!!

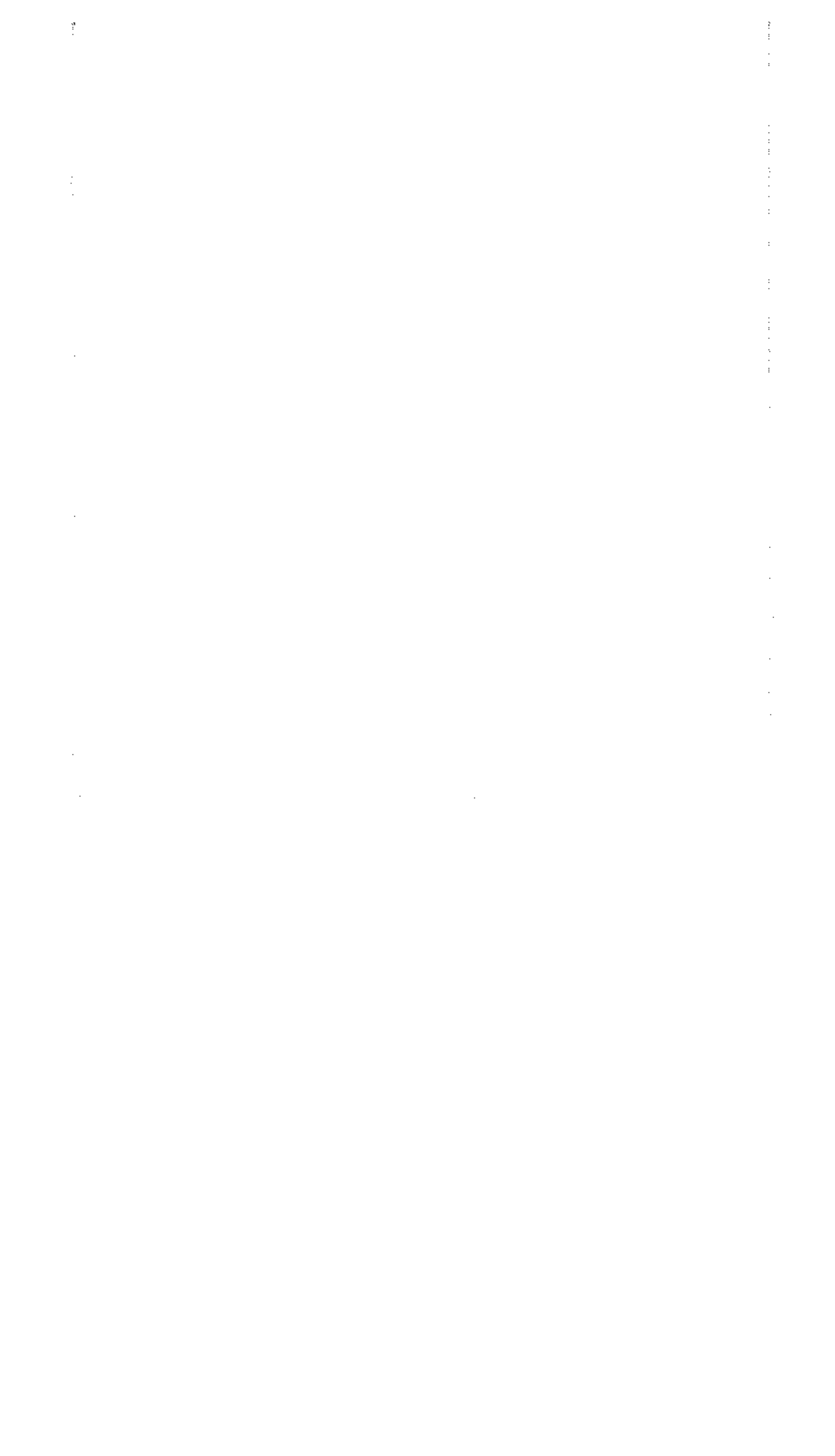
لقد كان هو نفسه شبح البلدة المجاورة!!

لكني كنت الوحيد الذي لم يستطع ذبحه..

أتدرون لماذا؟!

٢٠٠٠

حمام زغلول



ابتسمتُ في سخرية، وأنا أتأمل ذلك الشاب النحيل، الذي دلف إلى المكتبة بخطوات خجلة مترددة، واتجه إلى صاحبها يسأله بصوت خافت:

ــ هل أجد لديك الكتاب الأخير للأستاذ (حمام زغلول)؟

ناوله الرجل الكتاب المطلوب بلا اكتراث.. فتلقفه الشاب في لهفة، ونقده الثمن بسرعة.. قبل أن يغادر المكتبة بخطوات أقرب إلى العدو..

"يالهم من بلهاء!"

كذا قلت لنفسي، وأنا أتعجب من أمر أولئك القراء الأغبياء، الذين يقرأون لذلك الكاتب قليل الحياء، المدعو (حمام زغلول)!

إنه الكاتب الوحيد ــ على حد علمي ــ الذي يشتم قراءه علانية على صفحات كتبه.. ورغم ذلك يصر أولئك القراء الحمقى على شرائها.. وكأنما يشجعون ذلك الوغد على وقاحته وقلة أدبه!!

لقد عجزت تماما عن معرفة ذلك السر الذي يشدهم إلى كتاباته.. فقد قرأتها جميعا مرة بعد مرة، ولكني لم أجد بها ما يجذب أولئك الشباب لقراءتها، والتلهف على صدورها إلى ذلك الحد!!

فلا هي كتابات سياسية.. ولا هي برسـائل علميـة.. ولا حتى روايات بوليسية!

وليست بالطبع قصصاً عاطفية ملتهبـة.. بـين قوسـين.. (شديدة الاحمرار)!

وإنما هي فلسفة (عبيطة).. وقحة.. مدمرة.. يخاطب فيهـا المؤلف القارئ مباشرة.. محاولا أن يثبت له في كـل كتـاب، وصفحة، وجملة، وكلمة..

وحتى في كل حرف!

أنه - القارئ لا الكاتب.. وإن كنت لا أرى فارقا كـبيرا بينهما - حماااااار!!

نعم حمار!

حمار في كل ما يفعله ويقوله في حياتـه.. مـن المهـد إلى اللحد!!

من التعليم.. إلى التخرج.. إلى العمل..

إلى أن يتزوج، و ينجب أول جحش!

وهو بوصوله إلى تلك المرحلة الأخيرة، يكون قد نال درجة الدكتوراة في علم الحمورية!!

وهو علم تغرق في محيطه علوم الطب، والهندسة، والكيمياء، والفيزياء، وغيرها من العلوم الدنيوية التافهة، في نظر الأسـتاذ (حمام زغلول) طبعا!

فعل واحد يفعله الإنسان في حياته كلها، لا ينطبق عليه قانون الحمورية الخاص بالأستاذ (حمام)!

وهو الموت!!

وحتى هذا يفعله الإنسان دون إرادته عادة..

لذا فهو يموت حمارا، كما عاش طوال عمره حمارا!

ولو كان غير ذلك، لفضل الانتحار على أن يعيش حياته كالحمار!!

وإذا كان الأستاذ الكبير (صلاح جاهين) يقول في رباعياته الشهيرة:

وما فيش حمار بيحاول الانتحار

فإن الأستاذ (حمام زغلول) يؤكد ذلك بصورة حاسمة، قاطعة ـــ كما فسر العبارة ـــ منددا بالإنسان الوضيع، الذي يتقبل في خضوع ظلم الواقع وذله، راضيا أن يعيش حياته كالحمار، ولا يلقي بنفسه في أقرب بالوعة مجاري مفتوحة تقابله!!

ياله من كاتب أبله!

و ياهم من بلهاء أولئك القراء الحمقى الذين يُقبلون على شراء كتبه بكل غباء و(عبط)!

إلا إنني سألقي الأمر برمته خلف ظهري الآن، وأعـــود إلى بيتي مسرعا، بعد أن اشتريت مجموعة من الكتـــب القيمـــة في الأدب، والسياسة، وخلافه.. لأكمل الفصل الأخير من كتابي الجديد.. والذي ــ بكل تأكيد ــ سينفذ فور صدوره.. مادام هناك أولئك القراء الحمقى.. الذين يقرءون بشغف كـــل مـــا أصدره من مؤلفات!!

حمام زغلول

***

٢٠٠٠

زوجة بطل

أنا بطل!!

هكذا اعترفت زوجتي العزيزة أمام صديقاتها من سيدات المجتمع الراقي، في الحفل الذي أقامته خصيصا احتفالا بنجاحي ـــ كما تزعم ـــ في عمليتي الأخيرة.. والتي لاقت دويا إعلاميا هائلا.. حيث إلقاء القبض على مجرم دولي خطير، كان يحتجز مجموعة كبيرة من الرهائن.. من رجال وسيدات الأعمال في قاعة الاحتفالات بأحد الفنادق الشهيرة وتمكني من السيطرة عليه.. وتسليمه للعدالة.. دون إلحاق أدنى ضرر بأي من الرهائن المحتجزين.

وتناهى إلى مسامعي قصائد المديح التي تكيلها لي زوجتي على مسمع من صديقاتها.. بينما أنا واقف أتلقى التهاني والشكر من رؤسائي وزملائي في العمل.. ومن رجال الأعمال الذين تمكنت من إنقاذهم في تلك العملية..

وتصاعدت أبخرة الغيظ من رأسي.. وأنا أستمع إلى كلمات الإطراء التي ما تفتأ زوجتي ترصها في شخصي، وأقارنها بما كنت أسمعه منها قبل يومين فحسب.. عن طبيعة عملي كضابط شرطة.. التي تجعلها لا تستطيع رؤيتي أغلب الوقت..

وأتذكر كلماتها التي لم تزل ترددها كلما سنحت لي الظروف (السوداء) برؤية وجهها (الفتان)!

القريب الشبهة بوجه (أحدب نوتردام)!!

"منه لله (دادي).. هو الذي أصر على تزويجـــي لـــضابط شرطة مثله، مع إنه يعلم جيدا أنني لا أكره في حياتي أكثر مـــن رجال الشرطة!"

حتى إنها من كثرة ترديدها لهذه العبارة جعلتني أشك في أنني متزوج من (رئيس عصابة)!

مع العلم إنني لا أستبعد أن تكون كذلك بالفعل!

وعدت أستمع إليها في غيظ مكبوت.. وهي تستطرد:

ــ طالما حلمت طيلة عمري بالزواج من ضابط شـــرطة.. خاصة إذا كان مثل زوجي (عصام)، وفي بطولته.. كنت أقولها دائما لوالدي، كلما تقدم أحدهم لخطبتي...

"إما أن أتزوج ضابط شرطة مثلك يا (دادي).. أو أقـــضي بقية عمري بلا زواج.."

حتى أنني رفضت ١٢٠ عريسا قبل زواجي من (عصام).

"يا بنت الـــ.... شايفين الفـــشر؟!!.. ١٢٠ عريـــسا يـــا حفيدة (ميدوسا)؟!.. هو في حمار غيري أصلا اتقدملك؟!"

لا بأس.. هذه قسمتي وعليّ أن أرضى بها..

وما أن انتهى الحفل وانصرف المدعوون.. حتى ارتفع رنين الهاتف..

"آلو.. من؟.. ماذا؟!.. حسنا أنا قادم فورا.."

تك!

ـــ ماذا حدث يا (عصام)؟!

ـــ (هنري) هرب!

ـــ (هنري) من؟!

ـــ (هنري) من؟!.. إنه الإرهابي ـــ يا هانم! ـــــ الـــذي ألقيت القبض عليه أول أمس!

ـــ !!

***

يومان متواصلان من البحـــث والتحريـــات.. والأســـئلة والاستفسارات.. ولا أثر لـــ(هنري) على الإطلاق!

وكأنما تبخر في الهـــواء.. أو ذاب في المـــاء.. أو طـــار في السماء..

أو... كفى!

لا أجد تشبيهات أخرى تنتهي بـــ (آء)!

ما هذا العواء؟!

آه.. إنه هاتف مكتبي الذي لم أغـــادره منـــذ أن هـــرب (هنري)..

ــ (عصام رأفت).. من المتحدث؟

ــ (عصاااااااااام).. النجداااااااق.. إنه هنا.. سوف يقتلني.. أنت السبب.. يا ليتني ظللت عانسا و لم أر وجهك.. و...

ورددت العبارة الأزلية!

ترى .. من ذلك الشهم الذي يبغى تخليصي من (أم أربعة وأربعين) هذه؟!

وأتاني صوت (هنري) على الطرف الآخر يقول:

ــ هل سمعت يا عزيزي (عصام)؟.. أمامك مهلة أربعة وعشرين ساعة لا غير.. وبعدها إما أن أكون أنا خارج (مصر).. أو تكون زوجتك داخل القبر...

هاهاهاهاهاهاها..

تك!

ذلك الوغد!

أيعتقد أنه من الممكن أن أخون واجبي، وأهربه خارج الحدود، لمجرد أنه احتجز زوجتي (الحبيبة) ويهدد بقتلها؟!

لا.. لست أنا هذا الرجل!!

٢٠٠٠

الفتى النبيل



— نبيل —

أخيرا.. خرج (نبيل) إلى الناس..

أخيرا، وبعد عام كامل من الانطواء والعزلة..

قرر الخروج إليهم.. ومواجهتهم..

لكن.. ترى هل ستنجح هذه المواجهة؟!

هل سيستطيع التعامل معهم؟!

والسير في ركابهم؟!

هذا ما ستوضحه لنا الأيام التالية..

فتعالوا نعيشها معه..

ونشاركه إياها..

علنا نستفيد..

***

في الطريق..

نراه يسير شارد الذهن..

عقله لا يستطيع تمييز من يعبر بجواره..

أهو رجل.. أم امرأة..

كلهم أشباح يسيرون إلى حيث لا يعلم..

ولا يشغله ذلك..

إن ما يشغله أمر مختلف تمام الاختلاف عما يشغل النـــاس جميعا في عصرنا هذا.. ألا وهو التكرار..

إنه يرفض أن يكون نسخة مكررة من هذا وذاك..

فهو لم يخلق لذلك.. وهذا ما تعود أن يفهمه طوال عمره..

أن له كيانه الخاص..

الذي يجب أن يزود عنه بكل ما يملك من وسائل القوة..

ولا يدع لأحد الفرصة كي يمسخه، أو يشوهه..

أو.. أو يحوله إلى شخص تقليدي..

إنه مختلف..

وهذا الاختلاف ليس أفضلية بالتأكيد..

فهو يؤمن بأن لكل إنسان كيانه الخاص..

لكن الناس لم تعد تؤمن بهذا..

وتفضل أن تكون قرودا.. يقلد بعضها بعضا..

والاستثناء يؤكد القاعدة.. ولا ينفيها..

ومازال يمشي..

ويتذكر...

صفحة من كتاب الماضي

(هيام): ـــ (نبيل).. لا تفعل بي هذا أرجوك.. لا تتركني.. أنت تعلم إنني أحبك.. أنا واثقة من أنك تثق في حبي لــك.. فلماذا تتركني؟!

(نبيل): ـــ (هيام).. لا تحاولي.. لقد قلت لك أسبابي.. ولن أعيدها!

(هيام) باكية: ـــ أنا لا أفهم أسبابك تلك! ما معنى أنــك مختلف، وإنني لا أناسبك؟! لقد قلت لي من قبل ـــ أن بي كل صفات فتاة الأحلام، التي تخيلتها لنفسك.. وأنك لن تجد مثلي، ولو بحثت العمر كله.. فهل أجرمت حينما صارحتك بحــبي، قبل أن تفعل أنت، وتصارحني بحبك؟!

ـــ أنا لا أقبل هذا على نفسي أبدا!

ـــ إذن فهي عقدة الرجل الشرقي! أنت لــست مختلفــا في شيء! أنت مثل الآخرين!

ـــ لا ـــ قالها في ثورة ـــ أنا لست مثل أحد.. ربما كنــت أقل منهم.. لكني لست مثلهم.. ثم إنني أكره أن أســتعمل في

حديثي مصطلحا، اخترعه الرجل الغربي، ليبرر لنفسه انحرافه، وسوء سلوكه، وبعده عن ربه (عز وجل)!

ـ أنت! أنت هكذا دائما! تبهرني بأسلوبك، وقوة حجتك.. لهذا.. ولأشياء أخرى كثيرة.. أحببتك.. فلماذا تصدني، وتجرحني؟!

لولا علمي أنك تحبني من صميم قلبك.. ما سمحت لنفسي أن أتلفظ بهذا الكلام، الذي يبدو وكأنه يحمل الإهانة لي!

لكن عذري أن من تجد مثلك، لا ينبغي أن تفرط فيه، حتى وإن كان لا يحبها بالفعل، فما بالك وأنت تحبني؟!

ـ ولأنني أحبك أقولها لك يا (هيام).. ابحثي عن غيري.. سوف تجدين.. تخيلي إنني قد مت.. أو أنك لم تعرفيني مطلقا.. أنني أكره أن أسبب لك أي ألم.. وهذا الذي أفعله الآن يمثل أقل ألم بالنسبة لك، لو بقيتي معي!

أرجوك يا حبيبتي.. أنت قادرة على تغيير نفسك.. لكنني لا أستطيع فعل ذلك.. إن بقاءك معي يعني الانتحار دون موت!

(هيام)!.. (هيام)!

صفحة أخرى

(نبيل): ــ إذن فأنت تكره الناس جميعا؟!

(وحيد): ــ نعم أكرههم.

(نبيل): ــ إنها المرة الأولى التي تصارحني بشيء كهذا!

(وحيد): ــ لأنني مللت مثاليتك.. وأكره أن أمتاز بها!

(نبيل): ــ ولكنك تعامل الجميع باحترام بالغ.. وأدب لا أمتلك نصفه!!

(وحيد) : ــ تلك هي مصيبتي! لكم تمنيت أن أكون شخصا آخر غير ذلك الفتى المهذب، الذي أنا عليه.. شخص يخاف الناس من سلاطة لسانه، وقلة أدبه.. ويعملون لذلك ألف حساب وحساب!

ــ إذن.. فأنت تكرهني بدوري!

ــ نعم.. أنا أكرهك.. أكرهك لأنك مثلي.. مهذب.. معذب.. لا يجد نفسه في هذه الحياة، وهذا المجتمع.

ــ لا.. أنا لست مثلك.. أنا لا أكره الناس.. أنا أحبهم.. حقيقة أحبهم.. حتى لو أساءوا إلي فأنا أحبهم!

ــ بل هذا ما تحاول خداع نفسك به.. أنت مثلي.. تكرههم.. وتتمنى فناءهم.. أنت مثلي.. هل تفهم؟ مثلي!

ـــ لا ـــ قالها في ثورة ـــ أنا لست مثلك.. أنا لست مثـــل أحد.. أنا مختلف.. هل تفهم أنت؟! أنا مختلف!

لا.. لا.. لا!

صفحة ثالثة

ـــ تقول أنك لن تعمل؟!

ـــ نعم يا أبي!

ـــ كيف يا (نبيل)؟! لقد أتممـــت دراســـتك بنجـــاح.. وحصلت على شهادتك بتقدير يؤهلك للحصول علـــى أيـــة وظيفة ترغب.. فلماذا يا ولدي؟!

ـــ لأنني غير مستعد للتعامل مع الناس.. والعمل يحتـــاج إلى شخص اجتماعي، يمكنه إقامة العديد مـــن العلاقـــات، حـــتى يستفيد بها في مجال عمله.. وهذا غير متاح لي حاليا.

ـــ كيف؟! إنك أكثر من عرفت حبا للناس.. وتـــسامحك معهم يجعلهم يحبونك، منذ أول حوار يدور بينـــك وبينـــهم.. ألست أنت من يصفونك بالنبل؟! فما سمعت أحدهم دائما، إلا ويقول لك ـــ بعد تعامله معك: "يـــا (نبيـــل).. أنـــت فـــتى (نبيل).." فماذا هناك إذن؟!

ـ لا شيء يا والدي.. أرجوك.. لقد حققت لك مطلبك.. وحصلت على شهادتي بتقدير يشرفني ويشرفك.. فدعني على راحتي.. حتى يأذن الله (عز وجل) بأمر كان مفعولا..

ولا تقلق من ناحية المصاريف.. فلن أكلفك قرشا واحدا بعد الآن، وسأنفق من النقود التي تركتها لي والدتي (رحمها الله).

ـ وحينما تنتهي تلك النقود؟!

ـ سأضعها في أحد البنوك.. وأنفق من العائد الذي سيأتيني منها، فأنت تعرفني.. لا أميل إلى الترف.. والقليل يكفيني.

ـ وإلى متى ستستمر هكذا؟!

ـ لا أعرف! حقيقة لا أعرف!

ولكن لابد أن أعرف..

نعم لابد..

***

دلف إلى مصعد البناية، وطلب من العامل أن يوصله إلى الدور الثامن.. وهناك.. في شقة فاخرة.. وأمام مكتب أنيق.. تجلس إليه سكرتيرة حسناء.. وضع أمامها الصحيفة التي كانت في يده.. بعد أن فتحها على صفحة معينة.. وقال:

ـــ هذا الإعلان يخصكم.. أليس كذلك؟

نظرت إلى الصحيفة.. قبل أن ترفع رأسها إليه، قائلة:

ـــ بلى.. هو يخصنا.

ـــ حسنا.. اسمي (نبيل أبو المجد).. حاصل على بكالوريوس العلوم ـــ قسم جيولوجيا.. بتقدير عام جيد جدا مع مرتبة الشرف.. دفعة عام ١٩٩٩ ميلاديا.. وهذه أوراقي.

***

ـــ زهور ـــ

ـــ اسمك (زهور)؟!

ـــ نعم.

ـــ اسم غريب! سامحيني! ولكن لماذا لم يسمونك (زهرة) أو حتى (أزهار).. لماذا اختاروا لك اسم (زهور) بالتحديد؟!

ضحكت، ولم تجبه.. فهي نفسها لم تكن تدري إجابة لذلك السؤال، الذي تكرر على مسامعها عشرات المرات، طوال حياتها..

لكنها دائما كانت تشعر بلذة كلما سمعته.. فهو يعطيها إحساسا بأنها مميزة.. مختلفة عن كل الفتيات التي عرفتهن!

وعلى مدار السنين كانت تحاول إثبات ذلك.. بأن تكون دائما مسارا لإعجاب الجميع، دون تكلف أو اصطناع.. فلا أحد ينكر عليها أدها ورقتها، في معاملة كل من عرفها.. أو حتى تعامل معها معاملة عابرة.. لم تستغرق سوى بضع لحظات..

هي (زهور عبد المولى).. خريجة كلية العلوم ــ قسم جيولوجيا، لعام ٢٠٠٢ ميلادية.. والأولى على دفعتها، بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف.. واليوم.. كانت تتسلم عملها الجديد، بأحد معامل شركات البترول الكبرى.. وحدث أن قابلت (نبيل)..

***

"من ذلك الشخص الذي يجمعني وإياه مكان واحد، لأكثر من سبع ساعات يوميا؟!"

كان هذا السؤال هو ما يشغل بالها دائما.. ويجعلها تفكر فيه.. حتى بعد أن تعود من العمل.. وتستقر في غرفتها، بمترل والدها الراحل..

فهي يتيمة الأب، منذ أن كان عمرها خمسة عشر عاما.. وهي وحيدة أمها، التي تسعى دائما وأبدا لتسعدها، وتؤمن لها سبل المعيشة الكريمة، رغم قلة المعاش الذي تركه لهما ذلك الأب..

لهذا فقد بذلت قصارى جهدها، لكي تسعد هذه الأم الحنون كما أسعدتها، وتحملت عنها الكثير من الآلام والمحن..

لكنها اليوم بحاجة إلى صديقة عزيزة، تشاركها أسرارها.. وتحكي لها عن ذلك الفتى، الذي ملك عليها خواطرها وأفكارها..

وليس لها صديقة سوى تلك الأم الرءوم.. فهل تحدثها عنه؟!

لا تدري ماذا تفعل؟! إنها أول مرة تمر بمثل هذه التجربة!

فطوال عمرها قد تعودت أن تلقي بمثل هذه الأمور خلف ظهرها، ولا تلتفت إلا لدروسها وشهاداتها، التي كانت تبغي الحصول عليها بأعلى الدرجات..

وكلما كانت تحدثها أمها في أمور الزواج وخلافه.. كانت تقول لها مازحة:

ـ يا أمي! دعك من هذه الأمور الآن.. أنا لا تشغلني سوى دراستي وعلومي.. أما بشأن الزواج والزوجات.. فسأبحث لك عن عريس إذا كنت تريدين.

فتضحك الأم الحنون، وتقول لها، وهي تقرصها في أذنها:

ـ يالكِ من عفريتة! كلما حاولت التحدث معك بجد، تحولين الموضوع إلى مزاح وهذر!

فلا يكون منها إلا أن تضحك، وتلقي بنفسها بين ذراعيها، ليدفئها حضنها، الذي يسعها بأكثر مما تسعها هذه الدنيا الضيقة، التي تعيش فيها..

هي تعلم أنها — وفي ظل هذه الظروف الاقتصادية الطاحنة — لن تجد من يتقدم لخطبتها..

وهي الفتاة اليتيمة، التي لم يترك لها والدها شيئا من متاع الدنيا، سوى تلك الشقة الصغيرة التي تسعها وأمها بالكاد، ولا تتحمل أي ضيف آخر ينضم لهما فيها..

ثم إنها ذات قدر يسير من الجمال..

وشبان هذه الأيام لا يجدون القوت، ومع ذلك فكل منهم يحلم بـ (فينوس)، التي سوف تنسيه الجوع، وتجعله يزدرد طبق الفول، حالما أنه يأكل معها ثمار الجنة، ويحلي بشهدها!

لكن المشكلة مازالت قائمة.. وهي لا تدري ماذا تفعل؟!

هل تخبر أمها بأمر (نبيل)؟!

***

إنه لم يحدثها في شيء.. ولا حتى مجرد تلميح.. وأقصى ما سمعته منه.. أنهما — وأثناء فترة الراحة — قال لها ذات مرة:

— أنت فتاة مختلفة يا (زهور).. أجل.. إن هذا أهم ما يميزك في نظري.. أنك فتاة مختلفة!

ضحكت في خجل، وقالت:

ــ هل أعتبر هذا غزلا بين الزملاء؟!

وكانت المرة الأولى التي تراه يبتسم فيها، وهو يجيبها:

ــ إذا كان الاختلاف يعد مدحا.. فلك أن تعتبري ما قلته الآن غزلا.. وغزلا صريحا أيضا!

ولن يدر أبدا، كم أسعدها عبارته تلك.. برغم ما تحويه من غموض.. لكنها كانت تدرك أن بحياته لغزا.. يحاول فك طلاسمه..

أو أنه هو نفسه لغز.. يعجز كل من عرفه عن فهمه وتفسيره!

لكن ليست هي.. أجل.. ليست هي.. فقد تعودت دائما ألا تترك لغزا يستعصي عليها.. إلا وفسرته..

وسوف تفسر ذلك اللغز.. ففي تفسيرها له تكمن سعادتها..

أو هذا ما تظنه!

***

حينما ظهرت (هيام) لأول مرة في حياته.. كـــان يعتبرهـــا مخلوقة رائعة بكل المقاييس.. لكن الأمر قد تغير بعـــد تجربـــة عامين من الزواج، والمعاشرة الشرعية بينهما.. فلم يعد يراهـــا تلك الفتاة، التي رسم لها أجمل صورة في خياله، منذ أن كانـــا زميلين، تجمعهما جدران كلية واحدة.. هي كليـــة الآداب ـــ قسم اللغة الفرنسية..

كان أثناء الدراسة يعلم أنها على علاقة بطالب، من طلاب كلية العلوم.. اسمه (نبيل).. وأن هذا الطالب قد تركها، وقطع علاقته معها، لأسباب غامضة، لا يعلمها أحد من الدفعة كلها!

وبرغم أن هذا كان يسبب له بعض الضيق وهـــو يتقـــدم لخطبتها..

إلا أنه كرجل عاقل، أدرك أن هذا لا يـــشينها في شـــيء، فكثيرا ما تحدث هذه الأمور، في مجتمـــع مفتـــوح كمجتمـــع الجامعة، يضم فتيان وفتيات في عمر الزهور.. كلهم يبحث عن السعادة لدى زميل له أو زميلة.. وبعضهم ينجح.. والغالبيـــة تفشل..

ثم تستمر الحياة بلا مشاكل..

مادام الأمر لم يتجاوز بناء القصور في الخيـــال.. وإمـــساك الهواء بالأيدي!

أما لماذا تركها (نبيل)، ولم يتزوجها؟

فهناك العديد من المسببات التي قد تؤدي لـــذلك، دون أن يمس إحداها شرف (هيام) وكرامتها.. وأبسط هذه المسببات، أن تكون ظروفه المادية لا تـــسمح لــه بـــالزواج، في المـــدى القصير..

فتلك مشكلة معظم الشباب، في ذلك العصر المفزع الـــذي نحياه!

وهو نفسه ــ (علاء) ــ ما كان يستطيع التقدم لخطبتـــها، وإتمام الزواج بعد شهرين فحسب.. لو لم يكن من عائلة ثرية، ذللت له كل الصعاب، التي كانت ستعترض طريق أي شاب، في مثل سنه تلك..

لكنه ما عاد يحتمل جفاءها غير المعلن له!

هي تكرهه.. وهو يعلم ذلك..

برغم كل ما تحاول إظهاره له، من علامات الحب والمودة!

فكل شيء يمكن الخداع فيه.. إلا الحب!

فأنت تعلم أن إنسانا يحبك.. هذا شيء لا يدركه عقلك..

وإنما يحسه قلبك.. وتنبض به مشاعرك..

وهو لم يحس يوما أن (هيام) قد أحبته.. فهي لا تزال تحب ذلك الفتى الذي هجرها.. وحطم قلبها على ما يبدو.. فأصبح

غير قادر على استقبال وافد جديد.. حتى وإن تدله في حب صاحبته..

فهو قلب عاجز عن الحب.. إلا عند شخص واحد فقط..

(نبيل)!

مكاشفة

ـ (هيام).

ـ نعم يا (علاء).

ـ أمازلت تحبين ذلك الفتى؟

باغتها السؤال، فلم تستطع الرد..

وسقط كوب الماء من يدها، قبل أن تشرب!

بعد برهة قالت: ـ أي فتى تقصد؟!

ـ (نبيل)!

ـ (علاء)! ـ قالتها في دهشة شديدة ـ هل تشك فيّ؟!

ـ ليس للشك دخل فيما أقول.. أنا أعلم أنك أطهر امرأة عرفت.

ـ إذن فقد عرفت الكثيرات غيري!

ــ ليكن! أحببتني فحسب.. هل تحبينه؟

رفعت رأسها في شمم، وهي تقول: ــ لقد علمني أهلي ألا أحب سوى الرجل الذي سيربطني وإياه رباط الزواج!

قال، في سخرية مريرة: ــ ليس الحب بالتعلم!

سألته غاضبة: ــ ماذا تعني؟!

أجاب، في غضب مماثل: ــ لا أعني شيئا.. هل تحبينه أم لا؟

قالت متحدية: ــ لن أجيبك!

وأسرعت تنصرف، قبل أن تخونها دموعها..

ويرى الإجابة واضحة في عينيها..

***

كان يعلم أنه قد جرحها، بمثل هذه المكاشفة الصريحة..

ولكنها هي.. لا تفتأ تجرحه منذ أن ارتبط بها وتزوجها.. بحبها لذلك الفتى الذي يجهله!

وبعد تفكير طويل.. أدرك أنه مخطئ في حقها.. وأنها لم تقصر في واجباتها كزوجة.. ولم تأل جهدا لإسعاده والعمل على راحته..

أما ما في قلبها.. فهذا شيء لا يمكن محاسبتها عليه.. طالما كان يعلم ذلك منذ البداية.. ويعلم أن من يحب.. لا يكره من أحبه..

لهذا فهو لن يكرها أبدا.. ونهض ليصالحها.. ويطلب منـــها أن تسامحه.. وتنسى كل ما قاله لها.. منذ أن كانا على مائـــدة العشاء..

ولإحساسها بالذنب.. سامحته..

ونست كل ما تلفظت به شفتاه.. من كلام جارح..

كان يعلم أنها مخلوقة رائعة!

***

ـــ هيام ـــ

منذ اللحظة الأولى الـــتي وقعـــت فيهـــا عيناهـــا علـــى (نبيل).. وهي تحبه!

كانت قبل ذلك لا تعترف بالحب، إلا كنوع من التـــسلية الرخيصة، التي يتقرب بها الفتيان إلى الفتيات، لتمضية الوقـــت والعبث بمشاعرهن!

هي جميلة.. غاية في الجمال..

وقد جعلها جمالها هذا، تعتبر أية محاولة للتقرب منها، مـــن قبل أحد زملائها في الجامعة، ضرب من المعاكسة والمضايقة..

إلى أن التقت بـــ (نبيل).. فتغيرت نظرتها للحب!

أتت معرفتها به عن طريق إحدى زميلاتها بالدفعة، وهـذه الزميلة كانت تسكن بجواره، وتحدثه من آن لآخر باعتبارها جارته، وزميلته في نفس الجامعة.. وإن لم يكونا ينتميان لكلية واحدة..

فـ (نبيل) كان في كلية العلوم ـ قسم جيولوجيا، بينما (هيام) وزميلتها ـ التي عرفتها به ـ كانتا طالبتين بالفرقة النهائية، بكلية الآداب ـ قسم اللغة الفرنسية..

علمت حين شاهدته، أنه يختلف عن بقية شباب الجامعة.. فهو ذو أخلاق رفيعة، لم تصادف مثلها أبدا..

عف البصر.. عف اللسان.. متزن العقل.. شديد الإيمان.. قوي الحجة.. ساطع البيان.. كما أنه وسيم الطلعة.. أنيق الملبس.. رشيق القوام.. أية فتاة تصادف مثل ذلك الفتى ولا تحبه؟!

وهذا ما حدث معها.. لقد وجدت نفسها مدلهة في حبه حتى النخاع.. وهي التي ظنت في يوم من الأيام.. أنها لا تمتلك قلبا تحب به.. أو أنها عاجزة عن الحب، لأنه شيء غير موجود!

فخلال شهور قليلة.. كانا يحلقان معا في سماء من الخيال.. فأخبرته أنها تحبه، قبل أن يفعل هو، ويخبرها بذلك..

لكنه قال لها في وضوح:

"(هيام).. أنت تملكين كل موصفات فتاة الأحـــلام، الـــتي تخيلتها لنفسي.. ولن أجد مثلك، ولو بحثت العمر كله.."

وكانت هذه أروع كلمات سمعتها منه.. فلو كـــان قـــد أخبرها أنه أيضا يحبها.. لما اقتنعت.. وما صدقته..

فلقد تعودت دائما أن تسمع منه ما يبرر مشاعره، تجاه كل ما حوله.. دون أن يخبرها صراحة عن فحوى هذه المـــشاعر.. ويتركها تفهم ما تموج به عواطفه، دون أي تصريح من لدنه..

ولقد فهمت أنه يحبها.. بل هو مرتشف من هذا الحب حتى الثمالة.. ومع ذلك، فقد تركها ومضى دون أن تفهم..

لماذا فعل ما فعل؟!.. لأنه مختلف!

كانت هذه إجابته لها!.. ولا شيء آخر!

لم تدر وقتها.. أهي تهذي؟!

أم أنه كابوس مرعب، لم تستيقظ منه حتى الآن؟!

واستسلمت..

ماذا كان بيدها لتفعله، غير هذا الاستسلام المشين؟!

لكنها أبدا لم تكرهه!

حاولت هذا.. حاولت بكل طاقتها.. لكنها لم تستطع..

فالكراهية كالحب.. لا تأتي حينما نريدها نحن..

ولكن حينما تريد هي أن تأتي..

لهذا لم تقدر يوما أن تحب (علاء)..

وإن كانت تفضل الموت، على أن تسبب له أدنى ألم!

فهو لم يرتكب جرما حينما تزوجها.. إنه يحبها من صميم قلبه..

عامين من الزواج، فترة كافية كي تتيقن من هذا.. ولا يعود لديها أي شك فيه..

لكنه كشف لها اليوم عن مكنون قلبه.. وسألها صراحة:

"هل مازلتِ تحبين (نبيل)؟"

كان هذا السؤال بمثابة صاعقة بالنسبة لها.. فلقد أدركت أن كل محاولاتها لإسعاده قد فشلت.. وأنه يشعر بذلك الجرح الكبير الذي يدمي قلبها، ولا تستطيع معالجته أو إهماله..

وحتى لا تزيد من آلامه، التي سببتها له دون أن تشعر.. هربت من مواجهته.. وأسرعت إلى غرفتهما.. لتدفن رأسها في الوسادة.. وتدفن معها ذكريات عديدة راحت تهاجمها في شراسة.. مما جعل الدموع تنهال من عينيها أنهارا..

ومع انتصاف الليل.. وجدت (علاء) يأتي إليها، ليضمها إلى صدره.. ويطلب منها أن تسامحه، على كل ما بدر منه في حقها..

لم تدر ماذا تقول.. هل تطلب منه أن يسامحها هو؟!

إن هذا كفيل بجعله لا يسامحها طوال العمر!

لذا لم تطلب منه شيئا.. واستكانت بين ذراعيه كعصفور رقيق.. فاجأه المطر في ليلة صيف ساخنة..

وهتفت من أعماق قلبها.. دون أن يصل صوتها إلى شفتيها..

"سامحني أنت أيها الزوج الكريم.. فأنا المخطئة.."

***

ـ نبيل ـ

أخيرا يا (نبيل)!

أخيرا تحقق الحلم الذي كنت تصبو إليه!

أخيرا تذوقت طعم السعادة، دون أن تخالف طبيعتك، أو تتمرد عليها!

كان الطريق شاقا.. ولكنك قطعته مرغما، كي تثبت للجميع أنك لست عاجزا عن تحقيق هدفك.. وإنما تخشى أن تخذلك قوتك.. أو تخونك عزيمتك.. فتتخلى عنه..

وتصبح مثل الآخرين!

إن الجميع يبحثون عن المادة.. وينسون أنهم كي يحصلوا عليها بأسرع وسيلة ممكنة.. سوف يفقدون أشياء كثيرة تميزهم.. وتجعلهم بصمات متباينة.. لا تتشابه إحداها مع الأخرى.. إلا في الشكل العام فقط.. لكن الجوهر دائما ما يكون مختلفا.. وذاك ما كنت تسعى جاهدا لإثباته.. والحفاظ عليه..

لقد حققت نجاحا في شتى مجالات حياتك.. بعد أن كنت ضائعا في نظر من عرفوك..

لا شك أن هذا النجاح قد احتاج جهدا كثيرا.. ووقتا أكثر.. ليس الجميع على استعداد أن يضحوا به..

ولكنهم لا يدركون أن عاما واحدا.. تقضيه بعد أن حققت ما كنت تصبو إليه.. هو خير من مئة عام.. تعيشها وأنت تشعر أنك غريب.. لا يجد نفسه.. فيما هو فيه!

إن السعادة تكمن في النجاح.. لكنه لابد أن يكون نجاحا في شيء كنت تصبو إليه..فأن تقف ساعات، حتى تعرف الطريق الصحيح.. خير من أن تسلك طريقا تجهله، ثم لا تستطيع العودة منه.. وتبقى بقية عمرك ضائعا.. تائها..

لقد تركت (هيام)، لأن شيئا في نفسك أخبرك بأنها ليست هي من كنت تحلم بها.. بالرغم من أنك كنت تحبها.. ويتمزق قلبك وأنت تطالبها بالابتعاد عنك!

وكذا فعلت، حينما وجدت نفسك مقدما على حياة العمل.. فلم تشأ التسرع، والالتحاق بأول وظيفة تقابلك.. وقضيت عاما كاملا من العزلة والانطواء.. حتى تسنى لك أن تختار المجال، الذي ستعمل فيه..

لقد التحقت بكلية العلوم، لأنك كنت في حاجة إلى علم تبغيه.. وليس إلى وظيفة بعينها.. ولو كنت قد رأيت نفسك في مجال آخر غير مجالك الذي تعمل فيه الآن.. لألقيت شهادتك خلف ظهرك.. وتعلمت ما يناسب ذلك المجال الجديد..

ثم جاءت (زهور) إلى حياتك.. فشعرت بالخوف في البداية.. من أن تكون مشاعرك قد خدعتك هذه المرة أيضا.. وأنها ليست الفتاة المناسبة لك..

وإذا بك تجري مقارنة بينها وبين (هيام)..

فيتضح لك أخيرا الفرق بين الفتاتين..

والذي من أجله كانت (زهور)..

ولم تكن (هيام)!

إن (زهور) مختلفة مثلك.. نعم مثلك!!

فأن تماثلك فتاتك، فهذا ليس دليلا يدحض اختلافك..

لقد كنت تؤمن دائما أن الرجل لغز لا تستطيع فهمه سوى امرأة واحدة.. حتى هو نفسه لا يفهم نفسه!!

ولكنه حين يجد هذه المرأة.. فإنها تفهمه، وتُفهمه!

وهذا ما يجعل نسبة السعادة بين الناس، غير مكتملة في معظم الأحيان!

فأي رجل يستطيع أن يتزوج أية امرأة، ما دامت تحل له..

ولكن هناك دائما واحدة — وواحدة فقط — هي من تستطيع إسعاده.. وهو من يستطيع إسعادها!

فالرجل أشبه بصورة (بازل)، تنقصه قطعة واحدة كي يكتمل..

وقطعته هو كانت (زهور)..

وقد وجدها.. ووجد نفسه معها..

فلم يكد يتزوجها.. حتى انطلقت كل قدراته الكامنة، وتحررت من عقالها.. فحصل على الدكتوراة في مجال تخصصه.. وألّف أولى دواوين شعره.. بعد أن كان عاجزا عن كتابة قصيدة كاملة..

فما كاد يجد ملهمته.. حتى تنفجرت ينابيع الفن داخله.. وحقق ديوانه الأول (زهور) أعلى نسبة مبيعات.. عرفها شاعر قبله..

برغم أن الناس لم تعد تتذوق الشعر كثيرا هذه الأيام بعد أن طحنتهم المادة وطغت على عقولهم، لكن قلوبهم كانت بحاجة

دائمة إلى من يرويها، بعد أن تشققت من طول ظمأ إلى السعادة!

وكانت سعادته تكفيه، وتفيض لتغمرهم..

وهاهو يجلس في شرفة منزله، يطالع النجوم، وهي تتلألأ في سماء سعادته.. وزوجته بجانبه.. تنظر إليه، وترتشف من تلك السعادة، التي غمرته بها.. حتى يغمر جميع من حوله.. وأولهم هي..

غمغم يحدثها، وهو مازال سابحا بين أجرام الكون:

ـ هل تعلمين يا حبيبتي؟!

يخيل إليّ أحيانا إنني لا أنتمي إلى ذلك الواقع، الذي نعيش فيه.. فطالما شعرت بأنني غريب عنه..

كائن قادم من الفضاء.. سقطت مركبته هاهنا.. وظن أنه من أهل ذلك العصر العجيب.. المليء بالتفاصيل!

أو.. أو ربما فارس من العصور الوسطى.. ضل طريقه بين الأزمنة ليجد نفسه في ذلك الزمن.. يتحدث بلغته.. ويعامل بعملاته!

لكنه حين ينفرد بنفسه، يجد في جيبه عملة أخرى، تخبره أنه غريب.. ولكنها لا تخبره من أين أتى!

ثم نظر لها نظرة عجيبة.. وهمس يسألها:

ــ هل تعلمين أنتِ.. من أين أتى؟!

***

ــ مفاجأة ــ

"من قتل (نبيل)؟!.."

كان هذا هو السؤال الذي تردد على ألسنة الناس جميعا، في اليوم التالي مباشرة لظهور شاعرهم المحبوب على شاشات التليفزيون، في برنامج أعد له خصيصا.. لمناقشة ديوانه الأول (زهور) وسر نجاحه المذهل، في إعادة الشعر إلى مكانته الأولى، في قلوب الناس.. ثم طالعتهم صحف الصباح بخبر مصرعه، على يد شخص مجهول، لم يتم معرفة هويته حتى الآن.. ولا الدافع وراء ارتكابه مثل هذه الجريمة البشعة!

فبعد معرفتهم بـ(نبيل) من خلال ديوانه والمقابلة التي أجريت معه، وشاهدها الجميع.. أصبح مقتل هذا (الفتى النبيل) يعد جريمة بشعة.. تفوق في بشاعتها جميع الجرائم الأخرى، التي ترتكب يوميا!

ومازال السؤال يتردد على ألسنة الناس..

"من قتل (نبيل)؟!.."

***

"أنا..!"

رفع (وكيل النيابة) نظره إلى ذلك الشخص العجيب، الذي يقف أمامه.. واصطدمت عيناه بمنظره المزري، وهيئته الرثة، وثيابه البالية الممزقة.. ثم سأله في خشونة: — من أنت؟!

— أنا (وحيد).. (وحيد الوحيد).

عاد الرجل ينظر إليه بعدم فهم.. ثم تألقت عيناه كمن اكتشف سرا.. أو حل لغزا.. وعاد يسأله:

— وماذا تريد يا أستاذ (وحيد الوحيد)؟!

— أريد أن أعترف.

— وبماذا تعترف؟!

— بأنني قتلت (نبيل)!

— ومن (نبيل)؟!

— (نبيل أبو المجد).. كيف لا تعرفه؟!.. لقد أصبح أشهر رجل في (مصر) كلها.. بعد أن حقق ديوان شعره ما لم يحققه ديوان آخر، كتبه شاعر من قبل!!

— أهو شاعر؟!

— كان! لقد قتلته بالأمس!

— ولماذا فعلت؟!

— لأنه حقق ما لم أحققه أنا.. وحصل على سعادته كاملة.. لم ينقصها شيء!

أصبح ناجحا في عمله.. ناجحا في زواجه..

ناجحا حتى في موهبته!

لقد سرق مني كل شيء.. ولم يترك لي شيئا أحققه!

ـــ ولكني لم أسمع به من قبل!!

ـــ كيف؟! ألست أنت من تحقق في قضيته؟!

أرجوك أصدر أمرك بالإفراج عن كل من (هيام) و(علاء).. فليس لأي منهما صلة بمصرعه.. أنا من قتله!

ـــ قلت لك لا يوجد هناك (نبيل)، ولا (هيام)، ولا (علاء).. من أين تأتي بهذه الأسماء؟!

صمت الفتى مذهولا.. قبل أن يهمس بصوت مبحوح:

ـــ ولكن.. ولكن هناك (زهور) بالتأكيد.. أليس كذلك؟!

أطلق (وكيل النيابة) زفرة حارة، وقد نفذ صبره.. ثم قال له:

ـــ نعم! بالتأكيد توجد (زهور)! وسوف أرسلك لها فورا!

ثم أمسك قلمه، وكتب:

"يحول إلى مستشفى الأمراض العصبية والنفسية!!"

وكيل النائب العام / (نبيل أبو المجد)

***

٢٠٠٢

حبيبتي الصامتة



أعشقها..

وأعشق عينيها الفيروزيتين..

دائما ما ألمح فيهما بحرا من التساؤل..

لكنها لا تفضي إليّ بشيء!

تخفي حيرتها بداخلها..

ولا تسمح لها بالخروج..

إلا على شكل همهمات خافتة..

لا يدرك معناها سوى شخص واحد فقط..

أنا!

دائما ما تحيرني تلك النظرة!

ماذا تريد أن تقول لي؟!

هل تريد أن أضمها إلى صدري؟!

أم.. أم أن أحملها بين ذراعي؟!

هل تود التنزه معي في الحديقة..

بين أشجار الليمون التي تعشقها؟!

أم نخرج معا إلى مكان بعيد..

لا يوجد فيه سوى اثنين فقط..

أنا وهي؟!

لا أدرى حقيقة.. ماذا تريدين يا حبيبتي؟!

لكن.. دعيني أخمن..

أنت تريدين الآن......

(كوبًا من اللبن)!!

أليس كذلك؟!

وأجابتني حبيبتي قائلة:

ــ مياااااو!!

***

٢٠٠٢

زوجة نادرة

راحت عينا عالم الإليكترونيات الشهير دكتور (رأفت حمدي) تتابع زوجته الشابة (ندى)، وهى تطوف بين المدعوين، في الحفل الذي أقاماه معا بشقتهما الخاصة، بمناسبة العيد الأول لزواجهما.. وخيل إليه أنه يسمع أفكار ضيوفه، من الرجال والسيدات وهو يتابع أيضا نظراقم لها..

"يالها من شابة رائعة الجمال.."

"بل هي رقيقة جدا.."

"لا.. ليست الرقة أهم ما يميزها.. انظروا إلى حنالها البالغ في معاملة (رأفت).."

"كم أحسده عليها.."

"لقد صبر ونال حقا.."

"من حسن حظه أن (ولاء) قد تركته.. إنها أفضل منها مليوني مرة.."

"ماذا تقول يا صاح؟! (ولاء) من؟! لقد كانت أشبه بالقرد حينما تقارها بتلك المانيكان الساحرة!"

"تبا لك يا هذه!.. ستسلبين عقول أزواجنا!"

"اللعنة! أين تذهب البومة التي هي زوجتي بجوار تلك الفاتنة؟!"

"حقا لقد تزوجت غوريلا.. آآآآآآآآآه!"

وهكذا كانت تفضحهم نظراتهم لزوجته الحبيبة، ولكنه لم يكن يبال مطلقا..

فلتشتعل قلوبهم غيظا وحقدا.. ما داموا لا يرضون بقضاء الله.. ويحمدونه على ما هم فيه من نعمة لا يدركون قيمتها!

ولكنه يحب زوجته حقا.. إنها تحفته التي طال اشتياقه إليها حتى نالها..

كيف يمكنهم أن يفهموا هذا؟!

إن عقولهم أضيق من مسام الجلد!

تبا لهم من حمقى.. أوغاد!

لقد سخروا منه حين تركته (ولاء)..

ظنوا أنه سيموت بدونها، ولن يعثر على من تنسيه ذكراها اللعينة ـــ كما يراها الآن!

ولكن ها هو قد فاز بـــ (ندى).. أرق من الرقة، وأجمل من الجمال.. والأهم..

حنانها ليس له مثيل.. ولن تظلمه أبدا..

وهو على يقين من هذا!

واقترب منه صديقه الأعز (صالح)..

هذا هو الوحيد الذي يعلم أنه يحبه حقا..

وليس نفاقا أو خداعا..

ومال (صالح) على أذنه، قائلاً:

ـــ لا داعي لمثل هذه الحفلات يا (رأفت).. لقد أهداك الله درة ثمينة، حافظ عليها يا رجل، واعمل على أن تصونها وتبعدها عن أعين الحاقدين.

ابتسم (رأفت) ابتسامة خبيثة لم يفهم صديقه مغزاها.. وقال له في بروده الدائم:

ـــ لا عليك يا أخي.. دعهم يحترقون بحقدهم.

ـــ ولكن......

قاطعه (رأفت) بإشارة صارمة من يده.. فسكت (صالح) على مضض منه..

لكنه عاد يسأله:

ـــ ولكنك لم تخبرني حتى الآن، كيف عرفتها؟!

ـــ لقد قابلتها في (لندن).. كانت طالبة بالجامعة التي ذهبت لإلقاء بعض المحاضرات بها.. وهناك تعارفنا، وعرفت أنها وأهلها يعيشون في (إنجلترا) منذ زمن طويل.. ولم يمض الكثير من الوقت حتى كنت أطلبها من والدها ونتزوج دون أية مشاكل

تذكر.. وكم كانت فرحتها حين علمت أنها ستعيش في (مصر) وطنها الأصلي.

غمغم (صالح) مهنئا:

ـ حفظها الله لك يا أخي، وبارك لك فيها.. أنت تستحقها.

ابتسم له (رأفت) مجددا.. وإن حملت ابتسامته هذه المرة حزنا مقيما.. لم يدر له (صالح) سببا..

لكنه آثر ألا يسأله!

وانتهى الحفل.. وانصرف المدعوون..

وبعد انصرافهم، اقتربت (ندى) من زوجها..

وأحاطت عنقه بذراعيها الرقيقتين.. هاتفة في صوت كأنه أنغام الموسيقى:

ـ هل أعجبك الحفل؟

أجابها في حب حقيقي:

ـ أنت من أعجبتني حقا.

أراحت رأسها الصغير على صدره، هامسة:

ـ كم أحبك.

ضمها إليه في حنان بالغ، مغمغما:

ـــ ليس أكثر مني يا عزيزتي.

وفي عقله دارت أفكار عجيبة حقا..

ما أروعها من زوجة.. وما أندرها..

بلا شك.. إنها صنع يديه.. وبرنامجها نتاج عبقريته الفائقة..

كم سيكون ذهول هؤلاء الأوغـــاد عظيمـــا.. لـــو أنهـــم عرفوا أنه يضم إلى صدره الآن..

أحدث روبوت عرفته البشرية في تاريخها كله!

روبوت يدعى (ندى)!!

***

٢٠٠٢

بنات آخر زمن

خرجنا أنا وصديقي (وليد) متأخرين من دار عرض السينما، بعد أن شاهدنا معا فيلما مرعبا مليئا بالمشاهد المقززة، التي لا أستطيع وصفها لكم بأي حال من الأحوال..

لا أفهم إلى الآن لماذا يصر (وليد) على مشاهدة تلك النوعية من الأفلام، التي تمتلئ بمصاصي الدماء والمذؤوبين والزومبي وآكلي لحوم البشر.. إلى آخر تلك القائمة اللعينة المعروفة لنا جميعا، والتي جعلت من أفلام الرعب شيئا منفرا بشعا، تعافه النفوس السوية، ولا يفضلها إلا ذوي النفوس المريضة وحدهم..

لكن (وليد) صديقي وأنا أعرفه جيدا.. إنسان رومانسي، وحساس إلى درجة مدهشة.. لماذا إذن يفضل هذه النوعية من الأفلام يا ترى؟!

التفت أسأله مغتاظا: ــ ها يا سيدي.. ألن تخبرني الآن ما الذي يعجبك في هذه الأفلام الغبية؟!

نظر لي نظرة صامتة، وكأنه لا يراني.. وبدا سابحا في ملكوته الخاص به، والكلمات تخرج من فيه كأنها ليست منه:

ــ أنت لا تفهم يا (علاء).. هذه النوعية من الأفلام تحرك مشاعري وترهفها.. بأفضل ألف مرة مما تفعل بها تلك المشاهد الرومانسية السخيفة، التي ما عادت تخجل على أحد في عصرنا هذا.

زمجرت غاضبا: ــ همممم.. أنا لا افهم شيئا بالفعل.. هلا أوضحت لي مقصدك من هذا الهراء الذي تقوله؟!

أجاب بنفس اللهجة الهائمة:

ــ خذ عنك مثال لما تراد من فتيات اليوم.. أو تظن أهن يفهمن حقا معنى العاطفة أو المشاعر الصادقة؟!

ــ يا سلام.. وهل نحن الذين أمسينا نفهم يا خفيف؟!

ــ على الأقل نحن رجال.. الخشونة طبعنا وقد اعتدن هن عليها.. وأسلافنا كانوا أكثر منا غلظة وخشونة، ومع هذا بقيت أمهاتنا رقيقات حنونات، صابرات محتسبات.. حتى أنجبننا، ورضعنا منهن الحنان والرقة.. فلماذا اختلف الحال مع فتيات اليوم؟!

ــ سل العولمة!

قلتها ضاحكا.. فالتفت إليّ ناظرا نظرة ذات مغزى.. وهمس:

ــ أتقولها مازحا؟!.. إنها كارثة.. لكن أنظر إلى هذا المخزن المهجور.. أوتراه؟!

نظرت إلى حيث أشار، دون أن أفهم ما علاقة هذا بما كنا نقول، فوجدت أمامي سورا قصيرا يحيط بمبنى متهالك الجدران، يبدو مهجورا بالفعل.. كانت عقارب الساعة قد أوشكت على

الثانية بعد منتصف الليل، وكنا شتاءا، والشوارع خالية من المارة.. فالتفت أسأله: ــ ماذا به؟!

أجاب وعيناه تضيقان، وملامحه تزداد غموضا ورهبة.. وصوته يزداد عمقا:

ــ دائما ما أمر بجواره وأتساءل عما يحوى بداخله.. لم أر أبدا واحدا من بني البشر يدخله منذ أعوام.. ولا أدرى من يملكه.. لكني اليوم أملك من القوة النفسية والشجاعة ما يؤهلني لأقتحمه، وأجيب عن أسئلتي تلك.. التي حيرتني شهورا طوال.

ــ هل جننت يا (وليد).. أم أنه تأثير السهر، والفيلم الملعون ذاك؟!

لم يعرني اهتماما، وهو يتجه ناحية السور ليتسلقه.. فهتفت به:

ــ انتظر يا أبله!

لكنه لم ينتظر، وكأن نداءًا خفيا يدعوه ليقدم على فعلته الحمقاء هذه.. فلم أتمالك نفسي وقررت أن أتبعه..

هذا الأبله لا يدرى كم أحبه، إنه صديق طفولتي، وأنا يتيم ولا أخوة لي في هذا العالم.. سواه!

عبرنا السور وهبطنا على الجانب الآخر.. لنجد المبنى القديم أمامنا، يرحب بنا في صمت مهيب.. ويدعونا للدخول..

سار صديقي أمامي حاملا بطّارية ضوئية صغيرة لا أدري متى أحضرها.. هل كان يعد للأمر قبلها؟!

ربما!!.. أنا لم أعد افهم شيئا على الإطلاق!

الظلام كثيف.. وضوء البطارية الخافت لا يبدد منه سوى أضأله.. دخلنا حجرة واسعة، بها العديد من الصناديق الضخمة المليئة بالقش، تلهو فيها الفئران هنا وهناك.. فما كادت تشعر بنا تلك الحيوانات اللذيذة، حتى أسرعت تختبئ دون أن تترك أثرا خلفها..

كم يحب أخي (وليد) الفئران.. نعم.. وأكثر ما يحببه فيها أنها تخيف الفتيات!

لكني أعلم أنهن مدعيات رقة.. ولا يخفن إلا من بعضهن البعض.

سمعت (وليد) يهمس، مشيرا إلى ركن قصي:

ـــ انظر يا (علاء).. أترى هذا الذي يسيل من الصندوق المغلق هناك.. إنها دماء.. أليس كذلك؟!

ارتجفت لحظة.. ثم سألته:

ـــ ما.. ماذا تقول.. دماء؟!

ـــ نعم.. سأفتحه لأرى ما فيه.

وتوجه ناحية الصندوق قبل أن أمنعه!!

ماذا أصاب هذا المخبول؟!

صوت الخشب المتهالك يصنع ضجة في السكون، جعلت أسناني تصطك ببعضها البعض.. يا لي من رعديد.. تماسك يا (علاء).. إن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مُزحة من صديقك المجنون هذا..

نعم.. نعم.. هي مُزحة.. تلك هي الحقيقة!

"يا إلهي!!.."

قالها (وليد) مرتعدا، وهو يرتد للوراء فزعا، بعد أن ألقى نظرة داخل الصندوق.. فسألته، دون أن أرى شيئا من موضعي:

- مممما.. ماذا وجدت؟!

- إنها جثة فتاة مقطوعة الرأس!

- يئ يئ يئ يئ.. يا ليلة سوداء.. ماذا أتى بنا إلى هنا؟!.. هيا نهرب بسرعة!!

- ونترك الجريمة خلفنا؟!

- وماذا سنفعل؟!.. لا شك أن أحدهم قد استقدمها إلى هنا، وفعل بها السوء، ثم قتلها بعدها ليداري فعلته.. ليست الأولى ولا الأخيرة على أية حال!!

- ولماذا يقطع رأسها ـــ يا ناصح ـــ إذن؟!.. ألا يكفيه أن يقتلها فقط؟!

ارتج عليّ فلم أدر بم أجيبه.. لكني تمالكت نفسي أخيرا.. وهتفت:

- ليكن.. هيا نهرب، لسنا نحن المسئولين عنها.

- كما تحب.

قالها مستسلما بطريقة أدهشتني.. ثم اقترب نحوي لنمضي معا.. لكنه توقف فجأة.. وصرخ:

- انظر يا (علاء).. يدي قد طالتها دماء هذه الفتاة!

تبيت في الضوء الخافت للبطارية يده، وقد غمرتها الدماء بالفعل، وقبل أن أغمغم بشيء لا أدرى ما هو، رأيت مذعورا يده وقد تشققت وراح لحمها يتساقط على الأرض، و(وليد) ينتفض بقوة كأنه أرنب مذبوح.. ثم امتد التأثير إلى باقي جسده كله.. وأنا أصرخ وأتراجع فزعا من هول ما أرى..

لكنه مد يديه نحوي، وقبض على عنقي في قوة، وهو يتهته فزعا:

- عـ.. عـ.. (علاء).. أنـ.. أنـ.. أنقذني يا (علاء)!

لم أعرف ماذا أفعل.. وهو يكاد يزهق روحي بين يديه العظميتين، المليئتين بالدماء، وبقايا اللحم المتساقط..

فسقطت أرضا، وهوى فوقي وهو مـــا يـــزال قابـــضا علـــى عنقي، وامتدت يـــدي للـــوراء تحـــاول التقـــاط أي شـــيء لأضربه به..

قبضت أصابعي الملتاعة على ما يشبه الشعر، فجذبته بقوة، وهويت بذلك الشيء عل رأس (وليد).. فسقط أخـــيرا مـــن فوقي، وتحررت..

اعتدلت ألتقط أنفاسي في لهفة، ويدي مازالـــت ممـــسكة بالسلاح الذي أنقذني.. لكني ما كدت أتبين هويتـــه.. حـــتى ألقيته بعيدا، وأنا أصرخ فزعاً...

إنه رأس الفتاة المقطوع!!

ونهضت مسرعا لأهرب.. لكني اصطدمت به..

لا.. لا.. إنه.. إنه..

***

توقفت السيدة عن القراءة، ورفعت عينيها عن الـــصفحات لتشاهد طفلتها الصغيرة، وقد غلبها النوم، فبدت أشبه بمـــلاك صغير نائم.. فتمتمت من بين أسنانها:

ــ يا لك من شقية!.. مرة أخرى تنامين قبل أن أكملـــها لك، حتى تجبريني غدًا على أن أعيد قراءتها لك من البداية.. يا إلهي.. ما الذي يعجبها في هذه النوعية من القصص البشعة؟!

ثم توجهت إلى حجرتها لتنام.. وقبل أن تغمض عينيها غمغمت في فراشها مرتجفة:

ــ حقا.. بنات آخر زمن!!

***

٢٠٠٣

الفتى الساحر

عاد (الفتى الساحر) إلى مترله..

في ساعة متأخرة من الليل..

كان يشعر أن مرضا غامضا قد بدأ ينتابه..

كلما رأى واحدة من بنات (حواء) ظنها هي..

حاول أكثر من مرة أن يعثر على ضالته..

لكنه فشل..

الأولى خدعته..

والثانية خانته..

والثالثة تركته..

دلف إلى حجرته وهو يشعر أن بحثه قد انتهى إلى طريق مسدود.. وأنه لن يعثر أبدا على حبيبته - ذات الحنان - التي تمنحه ثقتها وحبها وحنانها دون زيف أو غدر أو خداع.. ولكن قلبه كان يشعر أنها موجودة في مكان ما.. وأن عليه أن يبذل كل ما في استطاعته ليجدها.. حتى لو عثر عليها وقد بقى من العمر لحظة واحدة..

فما أجمل الموت حين يكون بين يديّ حبيب.. تعلم أنه يتمنى اللحاق بك إلى العالم الآخر.. مضحيا بكل شهوات الدنيا وملذاتها..

هنا.. قرر أن يلجأ لاستخدام آخر أسلحته حتى يعثر عليها...

السحر!!

إنه ليس بساحر حقيقي.. لكنه يملك من العلم ما يتصوره العامة سحرا.. لذا لا يلجأ لاستخدامه إلا في أحلك الظروف وأقساها..

وامتدت يده إلى مكتبته العتيقة.. ليتناول كتاب (الوصفات السحرية الخطيرة).. الذي يعود إلى قرون مضت..

وبدأت عملية البحث..

***

أخيرا انتهى من تحضير الوصفة السحرية..

ذلك السائل العجيب الذي يمنحه قدرة الاختفاء عن عيون الناس..

الآن يمكنه المشي في الأسواق، وفي الطرقات، وفي الأماكن العامة.. ولا أحد يستطيع أن يراه..

فقط.. عليه ألا يقتحم حرمة البيوت..

وإلا زال مفعول السائل على الفور..

وانكشف لأهل الدار!

سيبحث عنها الآن دون أن تراه..

سيراقب كل من يخبره قلبه أنها هي..

لن تستطيع أية واحدة الآن أن تخدعه..

أو توهمه أنها الحبيبة المنشودة..

إذا خدعه قلبه فلن يخدعه عقله..

سوف يكشف زيفها على الفور..

والآن ليخرج في مهمته العجيبة..

وليحتفظ بالكتاب.. فقد تطول الرحلة.. ويحتاج إلى بعض الإرشادات الخاصة التي يحتويها الدليل الموجود في آخره!

وخرج (الفتى الساحر) يبحث عن حبيبته..

***

شهور طويلة مضت على ذلك اليوم..

قابل فيها الكثيرات.. وظن أن ضالته موجودة بينهن..

لكن العقل كان يحكم في النهاية بأن الأمر قد اختلط عليه.. وأن رغبته المخيفة في العثور عليها بأسرع وقت ممكن كانت تقوده دوما إلى الفتاة الخطأ..

أين هي؟! أين تسكن؟! في أي مدينة توجد؟!

لقد جاب الكثير والكثير من مدن العالم..

تارة يعتقد أنها تلك الشقراء..

وأخرى يظن أنها تلك السمراء..

لكن الأمر في النهاية لم يختلف عن تجاربه السابقة.. وإن كان السائل السحري قد أنقذه من أن يتعرض لمكرهن.. وخداعهن..

إن المرء حينما يعرف ألا أحد يراقبه.. يتصرف على طبيعته.. وتظهر عيوبه الكامنة.. التي يخفيها خلف قناع الرقة، والبراءة، والطهر..

وشيئا فشيئا.. عاد اليأس يتسلل إلى قلبه..

لكنه أبدا لم يستطع أن يردم ينبوع الأمل الذي يتدفق داخله..

وفاض الحزن من صدره..

وخرج إلى عينيه..

فجلس (الفتى الساحر) يبكي.. تحت ظل شجرة كبيرة، من أشجار الغابة الشاسعة التي قادته قدماه إليها..

بكى بحرقة لم يتخيل أن بشراً يستطيع تحملها..

علم الآن مدى ما قد يفعله الأمل بإنسان تعيس مثله.. يمتلك من الموهبة الكثير والكثير ليحقق ذاته.. ولكن ذاته هذه

تأبى إلا أن تعثر على من تشاطرها النجاح.. وتدفعها في طريق الصمود والتحدي..

حينئذ شعر بيد حانية توضع على كتفه.. وبصوت عـــذب ساحر يسأله في جزع:

ـــ ماذا يبكيك يا عزيزي؟!

رفع وجهه إلى محدثته.. وهو يشعر بذهول كاسح.. كانت هذه أول عبارة توجه إليه منذ شهور طويلة..

منذ أن جرع رشفتين من السائل السحري..

رأى أمامه وجهاً دقيق الملامح..

جميل القسمات..

هادئاً كصفحة الموج..

حين يستقر الطقس وتعتدل الرياح..

فتاة ليست بالصغيرة ولا بالكبيرة..

ربما كانت تكبره سنا.. ولكن هذا لا يظهر على وجههـــا الباسم كوجه الرشا حين تنظر إليك..

سألها متلهفا:

ـــ هل تريني؟!

رفعت حاجبيها دهشة، وقالت مبتسمة:

ـــ وهل هذا أمر عجيب؟!

ـــ كيف؟!

قالها متعجبا.. ثم أسرع يخرج الكتاب المذهل من بين طيات ثيابه.. ويقلّب صفحاته دهشا..

حتى توقف عند هذه الفقرة الرائعة، بين فقرات الدليل:

"إذا ما تناولت رشفتين من هذا السائل السحري فلن يستطيع أحد من البشر أن يراك.. إلا لو كان يجمعك وإياه رباط من نوع خاص.. رباط لا يمكن وصفه بالكلمات!"

وحين رفع وجهه إليها ثانية..

كانت السعادة تشع من كافة ثناياه..

وابتسامته تتألق.. كتألق البدر في ليلة التمام..

وعاد يسألها:

ـــ هل تريدينني أن أكف عن البكاء؟!

أجابته بقلبها قبل لسانها:

ـــ نعم.. أرجوك!

ـــ تزوجيني.

أومأت برأسها سعادة وحبا.. وقالت:

ـــ أفعل.

وتلاشى مفعول السائل السحري..

وضحكت الحياة لـــ....

الفتى الساحر

٢٠٠٣

زواج الثعابين

منذ أن تزوجت (شريف).. وهي تخشى أن تطلعه على سرها الخاص.. سرها الدفين.. سرها الذي لا يعلمه أحد من البشر..

إلا هي..

***

في صباها.. كانت قد تعرضت لحادث مريع.. حادث أفقدها القدرة على مواصلة حياتها بالصورة الطبيعية، التي كانت تنشدها أية فتاة في مثل سنها تلك.

كانت عائدة إلى منزلها في ساعة متأخرة من الليل، حيث سرقها الوقت وهي في زيارة لعمتها.. ولم تدر إلا وعقارب الساعة تشير إلى العاشرة والنصف مساءً.

لم يكن هذا بالوقت المتأخر في المدينة.. ولكن في القرية.. فالأمر يختلف.

عرضت عليها عمتها المبيت معها حتى لا تعود وحدها عبر الحقول.. لكنها رفضت بأدب.. وتعللت بأنها لم تخبر والدها ووالدتها أنها ستبيت عندها الليلة.. ولا يوجد هاتف في منزلها لإخبارهما بذلك الآن.. وقالت لها:

ـ اطمئني عمتي.. قريتنا آمنة.. وأنت تعرفينها خيرًا مني.. نحن لسنا في العاصمة.. أليس كذلك؟!

وخرجت من عندها.. وهي تدعو الله (عز وجل) أن تكون على صواب فيما ذكرته لها.. فهم ـــ هي وأسرتها ـــ يقيمون في العاصمة.. ولا يأتون لزيارة قريتهم هذه إلا مرة واحـــدة في العام أثناء الإجازة الصيفية.. لكنها تحب قريتها جدا.. حيـــث الأهل.. والناس الطيبون.. والمناظر الطبيعية الخلابة التي تعشقها منذ الصغر.

وراحت تسير عبر حقل البرسيم.. وعيناها تتابعان لوحـــة البيوت النائمة هناك.. على الطرف الآخر من الحقل.. وأشـــعة البدر الفضية تنير طريقها ولا تشعرها بالخوف مطلقا.. خاصة وهي تستمع إلى الأصوات المميزة لكائنات الحقول المعروفة.

لكن أشعة البدر أصبحت أكثر وميضا فجأة.. مما دفعها لأن تغلق عينيها.. وهي تشيح بوجهها بعيدا عن صفحة الـــسماء.. حيث الضوء المبهر الذي غشى بصرها.. وحيث سمعت صـــوتا أشبه بالفحيح.. وشعرت أنها ستفتح عينيها على منظر غريب.. لن تستطيع وصفه لأحد من البشر أيا كان.. وقد حدث مـــا توقعته دون أن تدري السر في ذلك!

فما أن استطاعت عيناها التعود على الضوء الساطع، حـــتى التفتت تنظر إلى...

إلى ما بدا لها كأنه مترل من الفضة الخالصة!

***

لم يدر بخاطرها لحظة أن هناك سفن فضائية بهذا الشكل العجيب.. كانت قد قرأت العديد من قصص الخيال العلمي.. إلا أنها لم تكن لتصدق أبدا بوجود كائنات عاقلة في الفضاء الكوني غير البشر.. ولقد هالها منظر ذلك الباب الفضي وهو يتراح لأعلى.. ويخرج منه ما ظنته لهنيهة تمثالاً من الذهب الخالص.. لكنه لم يكن كذلك!

لقد كان كائنا حيا.. أشبه بالبشر في الصفات والتكوين.. بيد أنه كان طويل القامة بشكل ملحوظ.. وملامحه جامدة كأنها قطعة من البرونز.. بينما ملابسه الذهبية تغطي جسده كله.

وعيناه.. عيناه كانتا تشبهان عيون الثعابين!!

أصابها الرعب.. وأرادت أن تعدو بعيدا إلى مترل أسرتها.. لكن قدماها تشبثتا بالأرض.. ولم تستطع تحريكهما.. وراح ذلك الكائن يتقدم منها.. وهو يرمقها بعينيه المخيفتين.. حتى بات على قيد خطوة واحدة من موضعها.

حينئذ لم تستطع المسكينة تحمل الموقف أكثر من ذلك.. فسقطت مغشيا عليها.

***

حين أفاقت.. وجدت نفسها ترقد في فراشها الوثير بمترل أسرتها بالقرية.. وأدارت عينيها فيمن حولها.. لتتبين وجوهًا مألوفة تعشقها وتأنس بصحبتها دائما.. فهذا والدها، وهذه والدتها، وتلك عمتها.. وكلهم يلتفون حول الفراش.. يتأملونها بنظراتهم الجزعة، الملتاعة، المتلهفة.

لم تفهم ماذا ألم بها.. ولم تحاول أن تسأل كثيرا.. كل ما علمته أنها حين تأخرت خرج أبوها باحثا عنها.. وبينما كان في طريقه لمترل أخته.. إذ به يفاجأ بابنته الصبية ملقاة في شبه غيبوبة.. على جانب حقل البرسيم.. الفاصل بين منازل القرية الشرقية ومنازلها الغربية.. ولم يكد يحملها بين ذراعيه.. حتى وجد أخته هي الأخرى قد لحقت بهما.. وقد ساقها القلق إلى أن تخرج في أثر الصبية.. وتطمئن إلى وصولها لمترل والدها.

وحين يئست أسرتها من أن تعرف سر ما أصابها في تلك الليلة.. تركوها لتنام.. دون أن يخطر ببال أحدهم أن ابنتهم (صفاء) لم تعد هي الفتاة التي كانوا يعرفونها من قبل.

لقد صارت أخرى!

***

أشياء كثيرة قد تغيرت فيها..

لم تعد هي (صفاء) المرحة الضحوكة.. ذات الميول الاجتماعية.. باتت فتاة أخرى.. منطوية على نفسها.. معزولة

في كهف مشاعرها.. وبئر أفكارها.. سجينة لسر لا تـــدري كنهه.. ولا تعرف ماهيته.

وأقسى ما يؤلمها حقا تلك التغيرات التي شابت جسدها كله وملامحها.. وراحت تزداد نموا مع نموها الطبيعي.

أصبحت أكثر طولا.. ويوما بعد يوم تطول قامتها أكثـــر فأكثر بشكل ملحوظ.. وصارت فاتنة كالأفعى.. جمالها يبـــهر العقول ويسحر الوجدان.. لكن الطول المفرط يحـــول دون أن يفكر أحد الشبان في التقدم لخطبتها!

أما ما لم يكن يعرفه أحد سوى والدها.. فهـــي عيناهـــا.. عيناها حين تغضب تبدوان مشقوقتين كعيون الثعابين.. وهـــي لحسن الحظ كانت هادئة دوما.. وهذه التحـــولات المذهلـــة جعلتها أكثر هدوءًا عما كانت عليه من قبل.. موقف واحـــد فقط هو الذي جعل أمها تتنبه إلى هذه النقطة المذهلة.. وتسألها عنها.

لكنها لم تجب.. فهي نفسها لا تدري السر في ذلك!

بيد أن حواسها صارت مرهفة.. كأقـــصى مـــا يكـــون.. ومشاعرها أضحت ذات مناعة خاصة.. فلم تشعر يوما بالميـــل إلى أحد الشبان أيا كان.. والسنون تمر.. والفتاة تكبر..

حتى ظهر (شريف)!

***

حين رأته لأول مرة.. شعرت أنها ترى صورة ذكورية لها في الحياة.

شاب به كل مواصفات فارس الأحلام.. الذي تمنته لنفسها في اليقظة والمنام.

الطول المفرط.. الوسامة المبهرة.. الذكاء الخارق الذي يبدو واضحا في كل تعاملاته مع الناس.

زميلها في العمل.. لهذا لم تجد حرجا في أن تتحدث إليه وتسأله عن كل ما يخطر ببالها من أشياء.

ولم يمض وقت.. إلا وكانا قد تزوجا.. بلا عقبات.. بلا مشكلات.. بلا أي شيء يحول دون أن يتم هذا الزواج.

وبدا من الواضح أن زواجهما مقبول من الجميع.. وكل من يراهما يتمتم في سره:

"حقا.. لكل شخص نصيب!"

ومضى زواجهما هادئا كبحيرة ساكنة..

لا تزورها الرياح.. ولا تقربها العواصف..

ويظلل عليها نخيل الرخاء فتبدو كواحة غنّاء..

ترفرف عليها السعادة صباح مساء..

حتى جاء يوم نشب بينهما شجار حاد.. هكذا فجأة.. وكأنما طيور الحسد قد اقتحمت عليهما الدار.

وكان (شريف) البادئ بالغضب.. وحينئذ رأت عينيه...

لا.. لم تكن هاتان عيناه.. كانتا عينان أخرتـــان.. عينـــان مشقوقتان كعيون الثعابين!

***

صدمها الموقف فلم تنبس ببنت شفة.. ولكنها أسرعت إلى غرفتها.. أغلقت الباب وألقت بنفـــسها علـــى الـــسرير.. ثم أجهشت بالبكاء.. بعدها ما لبثت أن غابت عن الوجـــود في إغماءة طويلة.

دخل إلى الغرفة فأذهله المشهد.. ظنّ أنها فارقت الحيـــاة.. ولكنه أصغى إلى دقات قلبها الواهنة فأسرع بها إلى المستشفى.

وهناك أفاقت من غيبوبتها.. وحينما رأته وارت وجههـــا بكفيها وانخرطت في البكاء ثانية.

كان كمن أضاع شيئا ثمينا.. فراح ينقب في ذاكرته تائها.. حائرا.. سمعها تهذي بكلمات برقت أمامه فأضاءت له الموقف برمته.

***

كانت تتحدث عن حقل البرسيم.. عن القمر.. عن الضوء الساطع الذي غمرها ليلتها.. عن منزل الفضة الخالصة الـــذي هبط من السماء.. عن المارد طويل القامة.. ذهبي الملابس الذي رأته.. وراح يتقدم نحوها حتى غابت عن الوجود.

حينئذ فهم كل شيء.. وراح يضمها، ويطمئنها قائلا:

ـــ اهدئي بالا يا حبيبتي، أنا لست ممن تظنين.. بل أنا الآخر ضحية مثلك، وحدث لي نفس ما حدث لك.. يبـــدو وأنهـــا تجربة مجهولة أجريت على عدد من البشر.. يعلم الله من هـــم، وكم عددهم، وماذا أريد بهم من وراء تلك التجربة المذهلة؟!

ثم ضحك مداعبا إياها.. وهمس:

ـــ لقد أخبرني الطبيب أنني عما قريب سأصبح أبا.. وهـــذا يعني ـــ طبعا ـــ أنك ستصبحين أما.

نظرت إليه غير مصدقة..

ثم استكانت بين ذراعيه.. فرحا.. وارتياحا..

وفي أحشائها كان هناك جنين ينمو..

لكنه لم يكن جنينا عاديا..

لم يكن كذلك أبدا!!

***

٢٠٠٣

حبيبتي والقمر



ذات مساء شعرتُ بالضيق يملأ صدري فصعدت إلى سطح منزلي، ألتمس بعض نسمات من الهواء النقي.. وهناك رحــت أنظر إلى النجوم التي كادت تتلاشى بجانب القمــر.. والــذي اكتمل بدرا فحجبها بنوره وطغى عليها بجماله.. لكني لم أكن أرى فيه مثل ذلك الجمال الذي يتحدثون عنه.. كل ما كنــت أراه هو وجه شوهته الصخور.. وأثقلته السنون الطوال بالهموم والأحزان.. لكني كنت أحبه رغم ذاك.. ورحت أناجيه قائلا:

ـ أيها البدر.. يا رفيق المحبين.. يا ملهم الشعراء والأدباء.. هلا أخبرتني يا صديقي أين أجدها؟! لقد طال الأمد عليّ وأنــا أجوب القفار باحثا عنها.. أين أجد ذلك الغزال الشارد الذي حيرني وأسكرني الحنين إليه.. أجبني يا قمر.. أين أجد حبيبتي؟! لا شك أنك تراها الآن.. من علوّك الشاهق الــسامي.. هــلا أخبرتني عن مكانها حتى أطير إليها؟!

لكني ما كدت ألفظ بكلمة (الطيران).. حتى شــعرت أن قدميّ ترتفعان في الهواء.. وأنني أعلو وأعلو وأعلو.. حتى بلغت قمم السحاب.. وأجفلت رعبا وخيفة من أن أختنق، أو أهوي من شاهق.. فيدك عنقي ويتحطم جسدي كــاملا.. لكــن لم يحدث هذا ولا ذاك.. وإنما راح القمر يقترب مني.. ويقترب.. أو على الأصح.. أنا من كان يقترب منه طــائرا.. ســابحا في الفضاء بعد أن فارقت مجال جاذبية الأرض.. وأضحيت معلقــا

مثل الشهاب.. وهبطت قدماي، لتلامس سطح القمر.. وتلفت حولي شاعرا بالذهول.. إنه القمر بالفعل.. كيف لم أختنق حتى الآن؟! كيف أتنفس دون هواء؟! بل كيف جئت إلى هنـــا؟! و لَمَ؟!

كانت فوهات البراكين ترقبني في ذهول.. فاتحة أفواههـــا.. وكأنما تنتظر أن يلقى بي في إحداها.. لكني أجفلت حين سمعت صوتا يأتي من خلفي.. قائلا:

ــ مرحبا بك!

أسرعت أعتدل نحوه لأجد.. شيخا طاعنا في الـــسن.. في وجهه وقار عجيب.. شعره الفضي الكثيف يمتزج مع لحيتـــه وشاربيه صانعين معا كتلة من الفضة اللامعة تحـــيط برأســـه.. بينما عيناه تتألقان وميضا وحيوية.. لم تزلهما بعـــد شراســـة القرون.. التي هي عمره بكل تأكيد..

وعباؤته.. عباؤته ذهبية طويلة موشاة بخيوط حمراء براقـــة كأنها الياقوت.. وفي يديه عصا يتكئ عليها.. وإن كانت أفخر من أية عصا رأيتها يوما على سطح الأرض.

سألته حائرا:

ــ من أنت أيها العجوز؟!

ابتسامته جميلة.. نعم لا شك في هذا..

وقد أجابني:

ـــ أنت تراني عجوزا لأنك رجل.. كل الرجـــال يـــرونني كذلك.. بينما الصبايا يرينني شابا وسيما، يافعا، لامعا كالبدر في تمامه.. وهذا وصف في محله تماما.. لا بأس يا عزيزي.. أنـــا القمر!

ـــ القمر!! ـــ قلتها متعجبا! ـــ وما الذي نقف عليه إذن.. إذا كنت أنت القمر؟!

أشار بيده متهكما:

ـــ لا ترهق بالك بهذه الأشياء.. هيا اجلس وحدثني عمـــا يشغلك.. والذي جاء بك إلى هنا.

وأشار إلى مقعدين عجيبين من الصخر.. لا أعرف من أين أتيا.. لم يكونا هنا من قبل!

جلست مبهورا.. بكل ما أراه حولي.. وما يحدث لي..

وغمغمت سائلا:

ـــ أنا من يسأل.. ما الذي أتى بي إلى هنا.. ولماذا؟!

نظر إليَّ نظرة طويلة قبل أن يقول:

ـــ هل تمنيت شيئًا ما مني وطلبت تحقيقه؟!

ـــ نعم ـــ قلتها حائرًا! ـــ ولكن هل أنت جـــني (عـــلاء الدين) لتحقق لي ما طلبت؟!

ـــ كف عن هرائك هذا وأخبرني فقط.. ماذا طلبت؟

ـــ طلبت أن تساعدني في العثور على حبيبتي التي أضناني الشوق إليها.. وأعياني البحث عنها في كل مكان!

ـــ وهل تعرفها باسمها؟

ـــ لو كنت أعرف اسمها أو أي شيء عنها لما سألتك العون!

ـــ وما الذي يجعلك متأكدا أني سأدلك عليها هي بالذات.. أليس من المفترض أن أهديك أية جميلة وكفى.. عندي من اللآلئ الكثير.. وكل لؤلؤة أجمل وأكثر فتنة من شقيقتها!

ـــ ومن قال لك أني أبحث عن الجمال أو الفتنة؟! لقد رأيت من الحسان المئات بل الآلاف فوق سطح الأرض.. لكن قلبي لم يخفق أبدا لإحداهن.. أنا أبحث عمن يعرفها قلبي ولا أعرفها أنا.. تشعر بها روحي ولا تبصرها عيناي.. تهفو لها نفسي ولا تلمسها يداي.. هل باستطاعتك أن تدلني على مثل هذا الحلم المستحيل؟!

ـــ أنت من قلتها بنفسك.. إنها حلم!

ـــ لكني أشعر أنها حقيقة.. وهي على بعد مسافة قصيرة مني.. لكني ـــ كما قلت لك ـــ أعجز أن أنالها في يقظتي.. ساعدني أرجوك!

أشار إليّ مهدئا.. ثم انتقلت إشارته إلى السماء.. حيث الأرض تبدو لمن يراها من هنا ــ من فوق القمر ــ قطعة من الروعة والبهاء.. جميلة.. جميلة.. جميلة.. كأنها فيروزة عملاقة تلمع في رحب الفضاء..

وغمغم القمر/الشيخ قائلا:

ــ انظر إلى هناك.. هل هي هذه؟

قبل أن أسأله رأيت فتاة هيفاء القوام.. تمشى في شارع ضيق يخلو من المارة.. لا أعلم كيف أصفها.. ولا كيف أمكنني رؤيتها من فوق سطح القمر وهي على الأرض.. وكأني أمشى بجوارها في نفس الشارع..

لكني التفت له متمتما في أسى:

ــ لا.. ليست هي.. لم يخفق قلبي بعد!

ــ حاول ثانية.. أهي تلك؟

مرة أخرى أنظر.. فتظهر لي فتاة شقراء.. ذات فتنة ودلال.. لكنها لم تحرك فيّ شعرة واحدة.. فأطرقت حزنا.. وأنا أردد:

ــ ولا هذه!

لكنه لم ييئس وراح يريني العشرات والعشرات.. حتى ضقت ذرعا به.. وشعرت أنني أمام نخاس يعرض عليّ جواريه

لأشتري واحدة منهن.. إنه لا يفهم.. إذا كنت سأشتريها حقا.. فليس بمالي ولا بكنوزي.. إنني لو اشتريتها فسوف يكون ثمنها مشاعري، أحاسيسي.. قلبي وعواطفي.. كل هذا لا يقدر بثمن.. أو لا يساوى شيئا على الإطلاق.. إلا عندها هي.. ولكن.. أين هي؟!

وقبل أن أصرخ في وجهه: كفى! لمحت بطرف عيني فتاة.

لا.. ليست فتاة.. إنها حياة.. حياة طالما تمنيت أن أحياها.. حياة كلها أنوثة وجمال وحنان ورقة.. حياة بلا صراع.. بلا هموم.. بلا أحزان.. حياة اسمها أمل.. لا شك أنها أمل.. فهي من ستمنحني الأمل لأبقى وأستمر..

كانت تقف هناك.. في شرفة منزلها الصغير.. تتطلع في ملائكية إلى السماء.. ترقب القمر الذي أقف عليه.. شعرت أنها ترقبني.. بعينيها الساحرتين الواسعتين السوداوين.. كأنهما ينبوعين من ينابيع الهوى.

هتفت في رفيقي الشيخ مجذوبا:

ـــ هي.. هي.. إنها هي.. لقد خفق لها قلبي.. وهامت بها نفسي.. وتعلقت بها روحي.. أسرع.. أسرع أيها العجوز المريض.. أوصلني لها حالا!

غمغم ساخرا بلا سبب:

ـــ أنت وما ترى!

ثم لوح بيديه قائلا:

ـــ جلا جلا.. جتك البلا.

لم أنتبه لما يقول.. لأنني وجدتني فجأة واقفا أسفل منزلهـــا، وبصحبتي ذلك المأفون.. الشيخ القمري..

وهي مازلت تتطلع إلى السماء.. برقة تفـــوق الوصـــف.. وشاعرية يغار منها الخيال..

وسمعت رفيقي يفرقع بإصبعيه، ولمحتها تلتفت إليّ.. ثم تبتسم أجمل ابتسامة رأتها عيناي.. من مخلوقة هي إلى الحور أقرب.

ثم أشار لها العجوز أن تهبط إلينا.. فأومـــأت برأســـها في سعادة تتقافز فوق جبينها الوضّاء.. وملامحها المرمرية.. وغابت عن أعيننا.. فالتفت إلى رفيقي أشكره..

لكني سمعته يهمس.. وهو يتلاشى سريعا حتى اختفى:

ـــ وداعا أيها الأحمق!

لم أفهم شيئا.. لكني وجدتها تظهر عند باب المترل.. وتندفع نحوي فاردة ذراعيها في سعادة.. فألتقطها بين ذراعي وأنا أكاد أرقص طربا.. لكنها سألتني في لهفة جزعة:

ــ أين هو.. أين حبيبي؟!

غمغمت مشدوها:

ــ أنا بين يديك يا صغيرتي.. عمن تبحثين؟!

دفعتني عنها صائحة في غضب.. تبدلت له ملامح الملائكة بملامح الشياطين:

ــ أين ذلك الوسيم الذي كان معك أيها الأحمق؟! ذلك القمر الذي سطع فجأة في لياليّ الدامسة فأنارها؟!

ارتفع حاجباي في ذهول وكدر..

وتذكرت كلمات قالها ذلك العجوز..

"أنت تراني عجوزا لأنك رجل.. كل الرجال يرونني كذلك.. بينما الصبايا ترينني شابا وسيما يافعا لامعا كالبدر في تمامه.. وهذا وصف في محله تماما.. لا بأس يا عزيزي.. أنا القمر!"

إذن فالأمر هكذا..

إن حبيبتي لم تحبني أنا..

إنها....

تعشق القمر!!

***

٢٠٠٣

غادة.. والغرفة السحرية



استيقظت (غادة) من نومها ذات صباح.. لتجد نفسها في غرفة لم تعتد عليها من قبل.. غرفة غريبة حقا.. لكنها جميلة..

جميلة إلى أبعد الحدود..

أدارت عينيها في محتويات الغرفة.. مبهورة.. مأخوذة بذلك الجمال الذي تشاهده من حولها.. العجيب أنها لم تكن تشعر بالخوف أو الرهبة.. كما هو مفترض لمن كان في مثل موقفها؛ يستيقظ ليجد نفسه في غرفة أخرى.. غير غرفة نومه المعتادة!

لكن مشاعرها في هذه اللحظة كانت مزيجا رائعا من الأمن، والسكينة، والطمأنينة، والسلام.. كانت تشعر بحنان غامر يحيطها في تلك الغرفة.. تأملت ستائرها البيضاء.. وجدرانها الوردية ناعمة الملمس ـ تلك الألوان التي تعشقها ـ وفراشها الوثير الذي يحتويها كما لم يحتوها قبله حتى حضن أمها..

صوان الملابس المفتوح على مصراعيه.. يدعوها لارتداء أي الأثواب التي تريدها.. وذلك الكومود هناك وقد وضع عليه كوبًا من الماء النقي.. يرجوها ويتوسل إليها أن ترشف منه.. وتشرفه بملمس شفتيها.. حاولت أن تنهض لتشرب لكن.. ياللعجب!

الكوب يرتفع في الهواء.. ويقترب من شفتيها الجميلتين لتشرب ما فيه دون أدنى مجهود منها.. ما أطعم مياهه ـ كذا فكرت ـ إنها لذيذة للغاية.. برغم أن الماء لا طعم له!

وتلك (التسريحة) هناك.. تنعكس صورتها في مرآتها كأبدع ما يكون.. وكأنها حورية من الحور العين تفترش أحد نمارق الجنة..

لم تكن تعلم أنها كانت يومًا بهذا الجمال وتلك الفتنة!

أم أن هذه الغرفة قد زادتها فتنةً وجمالاً؟!

لا تدري حقا.. لكن.. ما هذا؟!

أصابعها تتحسس الجدران فتغوص فيها كأنها مصنوعة من ريش النعام.. إنها تشعر أن الجدران تحتضن يديها بنعومة فائقة.. ليست الجدران فحسب.. بل كل ما في الغرفة يحتضنها ويضمها إليه في حنان لم تشهد له مثيل!

"ما أروعك من غرفة ساحرة!! ــ كذا فكرت (غادة) ــ لمن تكونين يا ترى؟! لا ينقصك إلا شيء واحد فقط.. حبيبي (عادل)"

إنه فعلا يستحق أن ينال من حنان هذه الغرفة مثل ما تناله هي.. ولكن.. ماذا ترى الآن؟!.. إنها صورته.. تلك التي هناك معلقة على الجدار!

وتمتمت قائلة.. وهي تتأمل ملامحه الوسيمة.. الساحرة في عينيها هي فحسب:

ــ أين أنت الآن يا (عادل)؟! أين أنــت الآن يــا حبــيبي لتشاركني متعة هذه الغرفة الحبيبة؟!

جاءها صوته من كل مكان..

رقيقا.. ناعما.. هامسا.. بمنتهى الألفة والحنان:

ــ أنا هنا يا حبيبتي.. أنا هنا.

تلفتت حولها في لهفة قائلة:

ــ هنا؟! هنا أين؟!

أجابها.. ورقته تزداد، وتزداد، وتزداد:

ــ هنا.. معك.

عادت تسأله في لهفة شديدة:

ــ وأين أنا الآن يا (عادل)؟! أين أنا الآن يا حبيبي؟!

شعرت أنه يبتسم.. لا تدرى كيف! ولكن صــوته كــان يحمل لها أجمل.. أجمل.. أجمل ابتسامة.. وهو يجيبها:

ــ أنتِ.. أنتِ في قلبي!

وعرفت (غادة) لمن تكون هذه الغرفة..

السحرية!

***

٢٠٠٣



باقة حنان

إهداء: إلى من يدركون قيمة الحنان.

ـــ وفاء ـــ

دمعة حزينة تنساب على وجنتها في صمت.. دمعة تحمل مرارة السنين.. ولوعة الحنين.. دمعة تذكرها بكل ما مضى.. وتدفع إلى خاطرها بالعديد والعديد من ذكريات الصبا والشباب.

تذكرت يوم أن كانت طفلة صغيرة.. تلهو مع أترابها في الحقول.. وترن ضحكاتها في أسماع الناس.. فتملأهم بالبهجة والسرور.

هي (وفاء).. (وفاء محمود سعيد)..

فتاة ريفية بسيطة.. لم تحصل من التعليم سوى على قدر يسير.. لا يتجاوز الشهادة الإعدادية.. وهي في ذلك تشبه الكثير من الفتيات الريفيات.. ولكنها كانت متفوقة إلى درجة تؤهلها للالتحاق بالمرحلة الثانوية.. وربما أيضا المرحلة الجامعية.

لكن طبيعة والدها أبت إلا أن تترك التعليم.. وتتفرغ لرعاية أخوتها الصغار.. وإن كان ثلاثتهم يقاربونها سنا.. ولا يحتاجون بشدة إلى رعايتها المزعومة تلك.

ولم تكن (وفاء) تملك أي قدر من الجمال.. ولكن جمال روحها كان يطغى بشدة على وجهها.. فيكسبه حنانا وألفة.. تجعلك لا تمل النظر إليه.. طالما كانت هي تنظر إليك.

وكأي فتاة تداعبها أحلام الشباب.. راحت (وفاء) تبحث عن فارسها المنتظر.. وتتساءل: من هو؟!.. ومتى تحين اللحظة التي يأتي فيها.. فيخطفها على حصانه ويطير؟!

لكنها مع الوقت.. بـدأت تـشعر أن هنـاك أزمـة في الفرسان هذه الأيام.. أو ربما هي أزمـة في الأحـصنة.. مـن يدري؟!

كان هذا حين شاهدته!!

(شعبان).. زينة فتيان البلد..

فتى أسمر جميل المحيى.. حين يخطر بفرسه في طرقات القرية.. تخفق له قلوب العذارى.. وتضرم الغيرة في قلوب الشبان.

ودون أن تشعر.. وجدت نفسها معلقة به.. كسائر الفتيات اللائي ترينه.. وتعجبهن وسامته.. وتسحرهن رجولته..

راحت تتمنى ذلك اليوم، الذي يأتيهـا فيـه.. ليحملـها على فرسه.. ولن يضايقها وقتها أنه لا يركب حصان!

وتمر الأيام.. وتبدأ الأحزان في الظهور..

أتراها جميعا قد تزوجن.. وهي كما هي.. لا يأتيها أحد..

و(شعبان).. يزداد غرورا مع الأيام.. ويبدو وكأنه لا تعجبه أية فتاة في القرية كلها.. ولا تملأ عينيه أية واحدة منهن.

لكنه لم يكن بعد قد رأى (سوسن).. وحين رآها أدرك كم كان مخطئا.. وأخذته الدهشة وهو يتساءل:

"ترى.. كيف نبت هذا الجمال الباهر في حضن هذه القرية الصغيرة.. الفقيرة.. المتوارية في شعاب الخريطة؟!"

ولم يمض وقتا.. إلا وكانت الفاجعة تنزل على رأس (وفاء)!

لقد تزوج (شعبان) من (سوسن).. وضاع حلمها الأخير في أن تصبح يوما ما عروسا لزينة شباب القرية.

وبكت (وفاء).. بكت بكل ما لديها من دموع.. بكت كبكاء السماء يوم أن تهطل السيول.

وأمام المرآة.. كفكفت دموعها.. وتصارعت في رأسها عشرات الأفكار.

كانت تظن أنه لن يضايقه افتقارها إلى الجمال، وسيجعله جمال روحها يهرع إليها ليخطبها، بعد أن يدرك أنها تحبه.. وتنتظره كل هذه السنوات.

وإن كان الأمر لا يتجاوز ثلاثة أعوام.. ولكنها بدت لها كدهر طويل.. وهي تشاهد صديقاتها يتزوجن واحدة تلو الأخرى.. وهي كما هي تنتظر فلا يأتيها أحد.

كان ما يصبرها أن (شعبان) لم يكن قد تزوج بعد.. ولكن ها هو ذا قد فعلها.. وفازت به (سوسن).

كالعادة.. تفوق جمال الوجه على جمال الروح.. وتفــوق الظاهر على الباطن.. لكن القدر كان يخبئ للعائلــة فاجعــة أخرى.. حلت بهم.. فزادها حزنا على حزن.. وألما على ألم.

لقد ماتت زوجة عمها.. هكذا فجــأة.. ماتــت المــرأة.. وخلفت وراءها طفلها الوحيد.. ذا الخمسة أعوام لا غير..

(بدر).. وكان بدرا بالفعل.. ابن عمها (صابر سعيد)..

وحزنت عليها (وفــاء).. حزنــا شــديدا.. أضــيف إلى حزنها السابق.. فعصر روحها.. وأدمى قلبها.

كانت المرأة أحن عليها من أمها التي ولــدتها.. وكانــت تعاملها معاملة الابنة دائما.. برغم أن فارق الــسن لم يكــن بالكبير.

فيوم أن ماتــت زوجــة عمهــا لم تكــن (وفــاء) قــد جاوزت بعد السابعة عشر مــن عمرهــا.. وكانــت المــرأة تدنو من الثلاثين.. ولقــد قــضت ســبع ســنوات تــتمنى الإنجاب.. قبل أن تحظى بوحيدها (بدر).

واليوم أصبح (بدر) يتيما.. فماذا عــساك ســتفعلين يــا (وفاء)؟!

ووجدت الفتاة في ابن عمها الصغير مــلاذا تلجــأ إليــه من أحزانها.. وتفرغ عليه من عاطفة الأمومــة الــتي وضــح أنها ستحرم منها بقية العمر.

راحت ترعاه.. حبا فيه.. ووفاءً لصنيع أمه معها.

عوضته عن أمه.. خاصة بعد أن رفض عمها الزواج مرة أخرى، لأنه كان يحب زوجته إلى درجة بعيدة، ولقد هده حزنه عليها، و لم يتخيل قط أن تحل أخرى مكانها في حياته.

ونما (بدر).. وترعرع في أحضان ابنة عمه الرحيمة (وفاء).

لم يشعر يوما باليتم وهو معها.. كان دائما ما ينطق اسمها بفرحة وسعادة، ليس لطابعهما مثيل.. (وفاء).. (وفاء)..

لم يكن يناديها بأية ألقاب.. وكأنما أصبح لقب (ماما) لديه مساويا لاسمها.. (وفاء)..

وحين دخل المدرسة.. والتحق بأولى مراحل التعليم الأساسي.. كانت معه.. تذاكر له.. وتساعده في فهم كل ما قد يستعصى عليه.

ورغم أن قلب والدها كان يتمزق حزنا عليها.. وهو يراها تكبر يوما بعد يوم بلا زواج.. إلا أن كرامته منعته من أن يستمع إلى توسلات زوجته.. ويبحث لها عن عريس بنفسه.

ومرت السنون.. و(بدر) ينمو بين أحضان (وفاء).. حتى أصبحت تشعر أنه ابنها.. الذي لم يكتب لها القدر أن تنجبه.

وحصل الصغير على الابتدائية بدرجة مدهشة، جعلت الجميع يتساءلون: هل السر في ذكاء الصغير؟! أم في مساعدة (وفاء) له؟!

لكنها كانت فخورة به.. وتدرك جيدا أنه أذكى مما يظنون.. ومما يتصورون.. ولقد أثبتت الأيام لهم هذا.. حين حصل على الإعدادية بدرجة مماثلة.. إن لم تكن أفضل.

وكادت (وفاء) تطير فرحا به.. احتضنته وراحت تدور به حول نفسها في سعادة طاغية.. وهو يشعر أنه لا يريد أن يفارق ذلك الحضن، الذي لم يجد الحنان سوى فيه..

خاصة وأن حزن والده على أمه، أتى عليه بنتيجة عكسية.. فجعله يفتقد حنان الأب، كما فقد من قبل حنان الأم.. ونسي الأب في غمرة أحزانه وشجونه.. أن يعوض طفله بعضا من الحنان الذي افتقده.

لكن (وفاء) كانت هنا.. وكان حنانها بمثابة نهر دائم الفيضان.. يرويه في كل وقت وحين.. فلا يشعر بالظمأ إلى الحنان مطلقا.. طالما كانت معه.. وطالما أخذته في صدرها، وسقته من رقتها وعبيرها.

وبدأت المرحلة الثانوية..

أيام عصيبة تلك التي شهدتها هذه المرحلة..

لم يعد الأب يحتمل فراق زوجته.. فلحق بها في مثواها الأخير.. وترك ولده أمانة لدى أخيه، وابنة أخيه.

أصبح واضحا أن القدر يعد لـ(بدر) ترتيبا خاصا لبقية حياته.. ولولا وجودها بجانبه.. لم يكن يدري ماذا كان سيفعل؟!

وحصل على الثانوية العامة بمجموع أقل بكثير، مما كــان الجميع يتوقعونه له.. وشق هذا صدر (وفاء)، برغم أنها لم تكن تفارقه لحظة واحدة في مذاكرته ليل نهار.. وطالما سهرت على رعايته، وتلبية حاجاته قبل أن يطلبها منها.

وبدلا من الفرحة.. كانت الدموع..

دموع الحزن لأنه أصبح مـضطرا لفراقهـا.. والـسفر إلى العاصمة، حيث المعهد الوحيد الذي يناسب مجموعه، ويضمن لـه وظيفة جيدة بعد أن يتخرج، يمكنه من خلالهـا القيـام بمسئولية نفسه.. ولا يلحق بركب العاطلين، الذي أصبح يمـلأ البلاد طولا وعرضا..

لاسيما أن والده وعمه.. لم يملكا يوما من حطام الدنيا شيئا يمكن توريثه للأبناء.. سوى قطعة أرض صغيرة تركها لهما الجد قبل أن يموت، فلم يقتسماها لصغرها، وفضلا زراعتها معا..

ولم تدر (وفاء) كيف يمكنها تصور بعده عنها؟!

لقد أضحى (بدر) حياتها كلها، ولا يمكنها العـيش يومـا واحدا بدونه.. كما تتخيل!

لكنها كانت تعلم أن هذه إرادة المولى، فلـم يخطـر لهـا لحظة أن تعترض، وسلمت أمرها إلى الله (عز وجل).

ودّعته.. والقلب يبكي قبل العين.. وسافر (بدر)...

والآن.. وبعد مرور خمس سنوات على سفره.. لم تدر كيف عاشتها.. ولا كيف احتملتها؟!

آن أوان العودة.. وجاءتهم برقيته اليوم تخبرهم بأنه قادم..

وانه أنهى دراسته.. وحصل على شهادته..

ستراه.. ستراه اليوم.. والدها خرج لاستقباله في محطة القطار، ولم ينتظر وصوله إلى القرية.

كم كانت قاسية ومؤلمة تلك السنوات الخمس التي لم تره فيها..

كان يذاكر شتاء ويعمل صيفا، ليوفر على عمه تكاليف تعليمه والإنفاق عليه.. ولم يكن يملك يوما واحدا يستطيع النزول فيه إلى القرية ليزورهم..

كان يعمل ليل نهار.. حتى في الأعياد والمناسبات..

ولكنه لم ينسها يوما، كما لم تنسه..

رسائله دائما كانت تؤنسها في وحدتها.. وتهون عليها بعض الشيء غربته.. وغربتها بين أهلها.

كان يحكي لها كل شيء.. عن الدراسة.. وعن العمل..

عن الصحبة والجيران والأصدقاء..

عن كل شيء..

ولكنها كانت دائما تشعر أن هناك شيئا يخفيه بين سطوره، ولا يريد إطلاعها عليه..

شعور غامض هو.. لكنها كانت تحس دائما بحزنه وفرحه..

رسائله الأخيرة كانت كلها تنطبع بطابع واحد..

طابع الحزن.

لكنها أبدا لم تستطع أن تسأله عما يحزنه؟!

كان هناك شيء يمنعها.. يحول بين الورقة والقلم.. ويمنع السؤال من أن يندفع ليأخذ مكانه بين سطور رسائلها إليه.

لكنها ستراه اليوم.. ولو كان ما يزال حزينا، فستعرف ذلك من عينيه.. وعندئذ لن يستطيع أن يخفي عنها شيئا.. أي شيء..

وأفاقت من شرودها على صوته وهو يناديها..

(وفاء)!

ـ بدر ـ

أخيرا عدت يا (بدر).. ولكن.. ليس كما ذهبت..

عدت بعد أن قاسيت سنوات الغربة.. بعيدا عن أهلك الذين تربيت بينهم.. ونشأت في دفء أحضانهم..

بعيدا عن المرأة الوحيدة التي حنت عليك.. وأشعرتك أنك لست يتيما.. وأنك لست وحيدا في هذه الدنيا الكبيرة.. الواسعة..

المرعبة..

بعيدا عنها.. عن (وفاء)..

عدت وأنت تحمل بين ضلوعك ذكرى غاية في الألم..

غاية في القسوة.. غاية في البشاعة..

ذكرى فتاة كانت بالنسبة لك مهجة القلب.. وزهرة الشباب.. وطاقة الحنين..

فإذا بها تسقيك من مرارة الدنيا.. ما لم تذقه أبدا طوال حياتك..

وإذا بها تحيل أحلامك إلى كوابيس.. وتسحب من تحت قدميك بساط السعادة.. الذي كانت سبق وقد فرشته لك..

لتسقط على ظهرك.. فينكسر..

إذا بها تنقلب عليك فجأة.. كإعصار عــات.. مــدمر.. مخيف..

بعد أن كانت نسمة الأمل التي تمنيتها مذ أن عرفت الحب..

ونما في داخلك إحساس الشباب.. وسخونة القلب..

إذا بها تنتزع ذلك القلب من بين ضلوعك..

لتلقيه تحت قدميها، وتسحقه بنعليها..

هذا ما فعلته بك مهجة قلبك.. الــتي وددت لــو تهــديها قلبك..

نعم.. هذا ما فعلته بك!

وتوقف القطار ليترجل منه (بدر).. ويستقبله عمه استقبالا حافلا.. بعد أن تعرف عليه بصعوبة بالغة.. فقد تغير كثيرا عما كان عليه قبل أن يسافر.

ويسأله (بدر) عن الصحة والأهل..

وفور أن وصلا إلى القرية، واستقبلهما البيت.. حتى هــرع جميع الأبناء ليحتفوا به.. ويرحبوا بعودته إلى أهله مرة أخرى.

ولكنه كان يعانقهم وعيناه تبحثان عنها.. دون أن تجدها..

ولم يحتمل الانتظار.. فسأل زوجة عمه العجوز في لهفة:

ـــ أين (وفاء).. لماذا لا أراها بينكم؟!

أجابته المرأة ضاحكة:

ـــ إنها بالطابق العلوي.. تنتظر قدومك منذ الأمس.

و لم يكذب خبرا.. وأسرع يرتقي السلم ثلاثا ثلاثا.. وهـــو يهتف مناديا باسمها في لهفة وشوق شديدين.. عظيمين..

ووقعت عيناه عليها.. ووقعت عيناها عليه..

و لم يتمالك نفسه من الشوق.. فتلقفها بين ذراعيه.. وأخذ يدور بها حول نفسه، كما كانت تفعل معه وهو صغير.. وهو يهتف بها:

ـــ أوحشتني كثيرا يا (وفاء).. أوحشتني كثيرا يا عزيزتي.

و لم تشعر (وفاء) إلا وهي مرفوعة عن الأرض بفعل ذراعيه القويتين.. غائصة بين أحضانه.. ذائبة بين ضلوعه..

وكاد شوقها إليه يجعلها تنسى الـــدنيا بأســـرها.. وهـــي على هذه الحال.. ولكنها انتبهت.. وارتجفت..

وشعر هو بها ترتجف بين أضلعه.. فحررها منـــها.. وهـــو يتساءل في دهشة: ـــ ماذا بك يا عزيزتي.. لماذا ترتجفين؟!

تراجعت في ارتباك.. و لم تدر ماذا تقول..

وأخيرا تمتمت في حرج: ـــ لا شيء يا صغيري.. لا شيء!

لكنه انتبه بدوره إلى سر ارتجافها.. واتسعت عيناه في ذهول للحظة، وقد أدرك غرابة الموقف!

إنه لم يتصور أبدا أن يأتي يوما.. تخجل فيه من أن يضمها إلى صدره.. ولكنها على حق.. فهي ابنة عمه، وتحل له.. وما فعله معها الآن لا يصح إلا بين الزوجين.. أو مع إحدى المحارم.. وهي ليست محرمة عليه.. برغم أنها تكبره باثنا عشر عاما كاملة!

وكان هذا ما جعلها ترتجف.. وتفر من بين أضلعه.

وراحت تتأمله في عجب.. لشد ما تغيرت يا (بدر)!!

نعم.. مازلت بدرًا كما كنت.. ولكنك أيضا أصبحت شابا يافعا.. متين البنيان.. رياضي القوام.. عريض الصدر والمنكبين.

"كم تغيرت يا صغيري!!"

قالتها دون أن تتصور أن هذا الفتى الوسيم، اليافع.. هو صغيرها الذي كان بالأمس.. والذي تربى بين أحضانها.. وفي ظل رعايتها.. ودفء حنانها.. لم يخطر في بالها أن يأتي اليوم الذي تخجل فيه منه.. وتشعر بالحرج حين يضمها إلى صدره.. ويحملها بين ذراعيه..

لقد تعودت هي أن تفعل هذا معه.. ولكن أن يفعله هو معها.. فهذا شيء عجيب.. عجيب جدا!!

وعلت الابتسامة وجهه الصبوح.. وهو يقول:

ـــ كم أوحشتني يا (وفاء).. وأوحشتني هذه الكلمة.

تمتمت في خجل.. أدهشها هي نفسها: ـــ أية كلمة؟!

ـــ (يا صغيري).. تلك هي الكلمة التي طالما اشتقت إلى سماعها منك، طوال السنوات الماضية.

ضحكت دون أن يفارقها خجلها.. وقالت:

ـــ أرى أنك قد كبرت عليها.. وعليّ أنا أيضا!

امتدت يده تمسح رأسها في حنان، وهو يقول: ـــ مهما كبرت، فلن أكبر عليك أبدا يا (وفاء).. فأنت أعز من لدي!

وفي عقله كان يكمل في حزن: "حتى وإن تخيلت يوما أن هناك من هي أعز منك.. فذاك كان وهما!"

لم تدر بم تجيبه.. فآثرت السكوت.. والصمت..

وبينما كان يشاهدها.. راحت تنمو في رأسه فكرة عجيبة..

ولكنها كانت بحاجة إلى بحث.. ودراسة!

"ماذا تقول يا (بدر)؟!"

قالها عمه في ذهول.. وهو يهب واقفا بعد أن أفزعته المفاجأة!

لكن (بدر) دعاه لأن يجلس ثانية.. وقال في هدوء:

ـــ اجلس يا عمي، واهدأ.. الأمر لا يستدعي كل هذه الدهشة والذهول.. لقد طلبت منك يد ابنة عمي.. أليس هذا من حقي؟!

جلس الرجل.. وهو مازال مذهولا.. وتمتم:

ـــ ولكن (وفاء) هي من ربتك.. وكنا نعتبرها بمثابة الأم بالنسبة لك.. كما أنها تكبرك باثني عشر عاما كاملة.. فهي الآن في الرابعة والثلاثين.. وأنت مازلت في الثانية والعشرين فقط.. فكيف تتزوجها؟!

ابتسم (بدر) فزادت وسامته، وبدا وكأنه قد أعد نفسه للإجابة:

ـــ أولاً يا عمي، (وفاء) ليست أمي، إنها ابنة عمي.. وإن كانت هي من ربتني في الصغر.. فهذا أدعى لأن أكون أنا من يرعاها ويحنو عليها في الكبر.. أليس كذلك؟!

هتف الرجل غاضبا:

ـــ إذن فأنت تريد أن تتزوجها شفقة بها.. أهذا غرضك؟!

تجهم وجه الفتى.. وأسرع يجيب:

ـــ معاذ الله يا عمي.. من قال ذلك؟!

إنني لم ولن أحب فتاة مثلما أحببت (وفاء).. لقد كنت ضائعا.. أبحث عن نفسي وهي بعيدة عني.. وكان من نتيجة هذا أنني كدت أتعسر في طريقي.. وأفشل في إتمام دراستي..

ودعك من التفاصيل.. فهي ليست لها أهمية الآن.. المهم أن توافق.. وبعدها يمكن تدبير الأمر.

ـــ وماذا عن فارق السن؟!

ـــ هذا هو ثانياً الذي كنت أنوي قوله.. فارق السن ليس مشكلة مادمت قانعا بها.. وأرى فيها ما يغنيني عن سائر نساء الأرض.. ثم إنها مازالت صغيرة ويمكنها الإنجاب إن كان هذا قصدك.. ألم تتمنى يوما أن ترى أبناءها؟!

عاد الرجل يفتح فمه، قائلا في شرود:

ـــ وماذا سيقول الناس؟!.. استغل أن الفتى يتيم ولا يعصي له أمرا.. وزوجه من ابنته التي تكبره بأكثر من عشر سنين؟!

ـــ لا يا عماه.. لن يجرؤ أحد على أن يقول هذا.. فكـــل القرية تعرفك.. وتعرفني منذ أن كنت صغيرا ألهو بينهم.. وهم يدركون مدى تعلقي بـــ(وفاء).. ومدى تعلقها بي.. صدقني يا عمي.. مادمنا لا نخالف شرع الله (عز وجل).. فليس لأحد أن يفه بكلمة واحدة يمكنها أن تجرحنا أو تؤذينا.

سأله الرجل في جمود: ـــ وهل صارحت (وفاء) بما تنوي؟!

صمت لحظة.. وسبحت عيناه في الفراغ.. قبل أن يجيبه:

ـــ سأصارحها الليلة.. وأنا قادر على إقناعها بإذن الله.. ثق بي.

قالها دون أن يدري..

هل هو بالفعل قادر على إقناعها بالزواج منه؟!

هذا ما سيعرفه الليلة..

فلينتظر.. ويرى!

***

لوحة مجسمة للذهول!!

كذا بدت (وفاء).. بعد أن سمعت ما تفوهت بـــه شـــفتا (بدر)..

لم تعد تعلم.. أمتيقظة هي.. أم نائمة تحلم؟!

لقد طلب منها صغيرها الزواج!!

هل هذا معقول؟!

كيف؟!.. كيف واتته تلك الفكرة المذهلة؟!

كيف يمكن له أن يتخذها زوجة؟!

وهي التي اتخذته لها ابنا طوال سنوات عمره الماضية؟!

هل غيرته الغربة إلى هذه الدرجة؟! ماذا دهاه؟!

وبصوت مبحوح.. وكلمات مرتجفة.. سألته: — ماذا قلت يا صغيري؟!.. كيف خطر لك أن تفكر في شيء كهذا؟!

ابتسم لها بحنان جارف.. وهو يقول: — ولم لا يا عزيزتي؟! أنت ابنة عمي.. وأنا أولى الناس بك.. ثم إنني تعودت على ألا أفارق حضنك.. وتلك هي وسيلتي الوحيدة لأبقى بين أحضانك!

كان شحوب وجهها يضفي عليه لمسة من الجمال، لم تكن موجودة به من قبل.. أجل.. إنها من النساء اللائي يظهر جمالهن بعد سن الثلاثين!

ولم تكن أبدا قد انتبهت لذلك.. فهي قد رضت تماما بنصيبها من الدنيا.. ولم تعد تفكر في الزواج مطلقا.. ولكن هاهي ذي تُخطب.. ومن يخطبها؟!.. إنه صغيرها الذي ربته.. وأرضعته من حنانها.. حتى بات أسيرا لذلك الحنان.. ولا يريد أن يفارقه قط!

وعادت تمتم بذات الصوت المبحوح:

ـ لكني كنت ومازلت أعتبرك طفلي الـذي لم أنجبه.. وفارق السن بيننا كبير، فكيف تتزوجني؟!

ملأت الابتسامة وجهه.. وأمسك بكلتا كتفيها.. ليهدئ من روعها قليلا.. ويقول: ـ أنصتي إليّ جيدا يا عزيزتي.. أما بشأن أنك كنت ومازلت تعتبرينني طفلك الذي لم تنجبيه.. فذلك شيء محمود.. وليت كل امرأة في الدنيا تفعله.. وتتخذ من زوجها ابنا ترعاه وتحبه.. حتى لا يأتي يوم وتقسو عليه أو تجرحه.. أو تغضب من حماقته.. وإساءته غير المقصودة لها..

وأما بشأن فارق السن.. فما أهونه عندي!!

إنك مازلت بكرا.. وكذلك تـزدادين جمـالا كلمـا زاد عمرك.. وهذا فأل طيب.. فما أجمل أن تكون زوجـتي ممـن يزددن جمالا مع مرور الزمن.. أليس هذا أفضل من أن أتـزوج امرأة جميلة.. ثم يذهب جمالها أمامي شيئا فشيئا؟!

بدت وكأن طيور الأرض كلها قد حطت فوق رأسها!!

هذا أول كلام غزل تسمعه في حياتها!! ومن يقوله لها؟!

إنه (بدر)!! صغيرها!! يا للعجب!! يا للعجب!!

لكنها تشعر أنه يفعل هذا شفقة بهـا.. وتدفعـه أخلاقـه وسجاياه الكريمة إلى أن يرد لها الجميـل.. ويعوضـها عمـا

سبق وأن فقدته.. كما عوضته هي عما افتقده في طفولته وصباه.

ولكن لا.. ليست هي بالمرأة الأنانية التي تسمح لنفسها باستغلال الفرصة.. وتشقي صغيرها بيديها.. وهي التي طالما تمنت إسعاده.. والعمل على راحته وهنائه.

ولوحت بيديها قائلة: ـ لا يا صغيري.. لا.. لست أنا من تنتظر أن يرد لها طفلها حسن الصنيع.. إن ما فعلته معك وأنت صغير.. قد فعلته لسبب واحد.. وهو أنني أحبك! لم يدع لها الفرصة لتهرب من بين يديه.. أو لتفلت من حصار عواطفه لها.. فعاد يخبرها.. وهو يضغط على كتفيها برفق:

ـ وأنا أيضا يا (وفاء).. أنا أيضا أفعل هذا لأنني أحبك.. ولا أطيق فكرة بعدك عني.. وأنتِ الآن لا تمثلين لي سوى ابنة عمي.. وابنة العم الطريقة الوحيدة لرؤيتها ليل نهار.. هو أن يتخذها المرء زوجة له.. حتى لا يجد حرجا في البقاء معها كما يشاء ويرغب..

فهل تفضلين أن نفترق الآن.. أم تتزوجينني؟!

ارتج عليها.. فلم تدر ماذا تقول؟!

هي لم تعد تستطيع تخيل فراقه لها أكثر من هذا.. لقد كبرت في السنوات الخمس الماضية خمسين سنة.. كما يخيل إليها.. وذاك لأنه كان بعيدا عنها.. فهل تحتمل فكرة فراقه بقية العمر؟!

وبشفاه تشققت من رهبة الموقف.. ووجه في بياض الشمع.. همست: — و.. وكيف أمنحك نفسي؟!.. إن هذا أمر عسير عليّ غاية العسر!

امتدت سبابته إلى ذقنها لترفع وجهها إليه.. فتلتقي عيناها بعينيه، وهو يجيب:

— لا تخشي شيئا من هذا الأمر يا عزيزتي.. ففور أن تصبحين زوجتي.. وتسكنين بين أحضاني.. ستزول عنك كل أفكارك السابقة.. ولن يعود هناك سوى (بدر).. زوجك.. وطفلك.

وهنا.. سقطت كل دفاعاتها..

واستجابت له دون أدنى مقاومة زائدة.

وما أن تزوجها.. وأغلق عليهما بابا واحدا..

حتى ضمها إلى صدره.. فاستكانت هناك.. وهي تشعر بسعادة لا مثيل لها..

أما هو.. فقد كان يشعر أنه يرد لها الآن تلك الباقة.. الـــتي طالما أهدته إياها وهو صغير..

باقة الحنان.

٢٠٠٣

مخبول في المدينة



انتبهت من نومي على صوت ضحكات عالية لمجموعة من الأشخاص يمرون بأسفل منزلي، فنهضت قائما وأنا أترنح شاعرا أني لم أحصل بعد على كفايتي من النوم، ثم اتجهت إلى دورة المياه لأغتسل بعد أن ألقيت نظرة على ساعة الحائط، فوجدتها تشير إلى السابعة والنصف صباحا، أي أنه لم يعد باقيا أمامي سوى نصف الساعة فقط على موعد العمل.

تبًا لهذا المنبه الأحمق، ألن يكف عن فعلها معي مرة واحدة؟! ذكروني أن أشتري واحدًا غيره وأنا عائد اليوم من عملي!

كان صوت الضحكات مازال يلاحقني، حتى وأنا أسفل الدُش.. من أين يأتي هؤلاء المخابيل بكل هذا المزاج الرائق يا ترى؟! إنني لا أذكر أني قد ضحكت منذ دخولي المرحلة الثانوية أو ربما قبلها بكثير.. يا لهم من معاتيه إنهم مازالوا يضحكون.. تعساً لهم!

غادرت الحمام، وارتديت ثيابي بعد أن انتهيت من أداء ركعتي الصبح بشكل آلي. يحزنني كثيرا أني قد وصلت لهذا الحال، لكن الحياة كلها أصبحت روتينا يوميا.. حتى فروض العبادة لم تسلم من هذا الأذى.. أستغفر الله العظيم.

ذهبت إلى المطبخ وأعددت لنفسي كوبا من الشاي سريعا. من الواضح أني سأصل اليوم متأخرًا عن موعدي ساعة واحدة

فقط على غير العادة، لكنها ضريبة العزوبية وهي على كل حال أخف ألف مرة من ضريبة الزواج المهلكة.

عجبًا.. مازالت أصوات الضحك تتعالى من الشارع و تتباين. لا وقت أمامي لألقي نظرة من النافذة. ها أنا نازل لأرى ما يحدث بنفسي!

***

ما أن غادرت مدخل البيت وألقيت نظرة على شارعي الواسع، حتى أصابني الذهول وشمل أطرافي جميعها، فما قدرت على تحريك إصبع ولا شفة.. وقفت مفتوح الفم أحدق فيما يحدث أمامي.. ما كل هؤلاء البشر؟! من أين أتوا؟! هل خلت البيوت من ساكنيها؟! لماذا يضحكون جميعا هكذا بملئ أفواههم؟! الكل يضحك، يضحك، يضحك.. يضحكون وكأنما قد أصيبوا كلهم بالجنون!!

سرت بينهم وأنا لا أفهم شيئًا مما يحدث حولي. كان بعضهم يرتدى ملابسه الداخلية فقط ولا يعبئ بالآخرين.. لأن الآخرين كلهم كانوا مثله.. يضحكون.. جميعهم يضحكون!

تسمرت حائرًا، لا أدرى ماذا أفعل! كانت حالة الذهول أشد من أن أقاومها. هل أصيبت المدينة كلها بالجنون؟!

لكني سأحاول.. أوقفت أحدهم عنوة، وسألته:

ـــ ماذا يضحكك يا هذا؟!

لم يعبأ بي، وظل يضحك في وجهي، يضحك بأعلى صوته.. صرخت به مرة أخرى:

ـــ كف عن الضحك وأخبرني.. ماذا يضحككم؟!

لا حياة لمن تنادى. مازال الرجل يضحك وكأنما أدغدغه!

ـــ تبًا لك.. تبا لكم جميعا.. ماذا يضحككم؟!

كذا صرخت، واندفعت ناحية سيدة عجوز تكاد تموت ضحكًا فهززتها بقوة: ـــ اعقلي يا أمي، أنت لست في حالة تسمح لك بكل هذا الانفعال سيتوقف قلبك حتمًا!

لا فائدة.. المرأة مازلت تضحك وكأنما قلت لها نكتة!!

"يخرب عقلك! اخرسي يا امرأة، سوف تموتين!!".. ولا الهواء!!

يا إلهي ساعدني.. نعم.. ليس أمامي سوى الشرطة، ربما يفهم أحدهم ما يحدث هنا!

اندفعت أعدو ناحية قسم الشرطة، وقد شاهدت المئات من أهل المدينة وهم يضحكون، ويسيرون إلى لا مكان.. وكأنما يدورون في حلقات مفرغة. وبعضهم يرتدى ملابسه الكاملة،على حين كان هناك آخرين يغادرون بيوتهم وهم

مازالوا بملابس النوم، أو الملابس الداخلية.. حتى بعض [illegible]..
يا للكارثة!! .

لكن الكارثة الحقيقية كانت تنتظرني [illegible] وصلت إلى قسم الشرطة!

عشرات الجنود يفترشون الأرض، وهم يقهقهون بأعنف ما لديهم من قوة، وكأنما القهقهة عندهم قد حلت محل الضبط والربط.. في الآداب العسكرية. وعندما فتشت بعيني عن الضباط لم أحد سوى ثلاثة منهم يتبادلون القهقهة وهم ينظرون إلى جنودهم كأنما يتسلون بمشاهدة الأراجوز!

ـــ عاااااااااا .. ماذا أصابكم جميعا أيها البلهاء.. هل جننتم؟!

واندفعت بين الناس المتزاحمين في الشوارع، ورحت أضرب هذا وأصفع هذه، وألكم ذاك وأركل تلك. وأنا مازلت أصرخ بأعلى صوتي. وقد غلبتني حالة رهيبة من الهستريا نتيجة لما أشاهده حولي. وأهتف:

ـــ أيها الناس.. ماذا دهاكم؟! هل قامت قيامتكم؟!.. لو أنها قامت فلم تضحكون؟! أليس من الأولى أن تبكوا؟!.. يا هووووه!!

أخيرًا يئست.. وجلست!

وبينما أنا جالس على الأرض.. أشاهد هذه المهزلة.. بل الكارثة التي لا أملك لهم فيها ضرًا ولا نفعًا.. إذا بشخص ينظر إليّ ويقول:

ــ يا إلهي.. أنت لا تضحك.. أخيرا عثرت على شخص لا يضحك!

نهضت وأنا أحدق فيه غير مصدق.. ثم سألته:

ــ هل أنت العاقل الوحيد الذي بقي هنا.. غيري؟!

أجابني ذاهلا: ــ أعتقد هذا.. هيا نبتعد عن هنا حتى يمكننا الحديث في هدوء، بعيدًا عن هؤلاء المخابيل!

ــ وأين سنذهب؟! إنهم في كل مكان.. يبدو وكأن العالم كله قد جن!!

ــ لا.. لا أظن.. يخيل إليّ أنها مدينتنا فقط هي ما أصابها هذا المصاب، فمازال التلفزيون يذيع برامجه.. وكذلك المذياع، وكل شيء يبدو على ما يرام خارج نطاق المدينة.

ــ وكيف لم ينتبه أحد من العاصمة إلى ما يحدث هنا؟!

أجابني وهو يسير بجواري.. وقد ابتعدنا تقريباً عن وسط المدينة: ــ أنت تعلم أن مدينتنا ما زالت جديدة.. برغم كثرة

سكانها، وأنها تبتعد عن العاصمة مسافة كبيرة جدا. ثم إن كل الأجهزة قد تعطلت ــ أقصد الأجهزة الأمنية والمحلية ــ فمن سيبلغ عما حدث غيرنا؟! إن الكل يضحك!!

ــ وماذا ننتظر؟! هاهو هاتفي، هيا نبلغ سلطات العاصمة فورا!

ــ انتظر.. بأي شيء سوف تبلغهم؟! إنهم سينتبهون لهذا سريعًا، لكن أحدًا لن يصدقك لو قلت هذا في الهاتف.. دعنا نعرف السبب أولاً قبل أن نبلغ.

كدت أصرخ في وجهه أن ما يقوله غير معقول.. وأنه بارد إلى درجة تثير الذهول.. لكني وجدت نفسي أهتف فجأة وأنا أشير خلفه: ــ ما هذا؟!

***

كان ما لفت انتباهي بشدة هي حفرة.. حفرة غريبة تبدو في وسط ذلك الشارع الذي نسير فيه.. والواقع بقرب حدود المدينة الشمالية!

التفت رفيقي ينظر إلى الحفرة، ثم تبادلنا نظرة مشتركة تموج بالحيرة. قبل أن نتقدم معًا لنشاهد ما بداخلها.. وكان ما بداخلها حجر!

حجر أخضر عجيب.. متوسط الوزن.. محترق الأطراف بشكل واضح.. مما يدل على تعرضه لحرارة شديدة ناتجة عن الاحتكاك البالغ بطبقات الهواء العليا.

والتفت كلانا إلى رفيقه هاتفين في نفس واحد: — نيزك!!

ثم بعد برهة قال محدثي: — نعم إنه نيزك.. لاشك أنه سبب ما يحدث في المدينة منذ الصباح!

سألته في لهفة: — كيف؟!

انحنى يفحصه بنظرة أكثر قربًا دون أن يحاول لمسه، وأجاب:

— من الواضح أن هذا النيزك العجيب يصدر نوعاً خطيراً من الإشعاع (السايكو — فيزيائي) الذي يصيب البشر خاصة بالضحك بشكل متصل ودائم، مثله في ذلك مثل غاز (أول أكسيد النيتريك) أو ما يعرفه الناس باسم (غاز الضحك).. ولا شك أن مجال تأثير هذا النيزك هو دائرة نصف قطرها يساوى قطر المدينة كاملة أو أكثر قليلاً!

تعاظمت دهشتي وأنا أسأله:

ـــ ولماذا لم يتأثر كلينا بهذا الإشعاع.. الذي تأثر به كل سكان المدينة؟! ثم من أنت، وما هو مجال عملك لتستنج كل هذا من مجرد نيزك؟!

ابتسم وهو يلتفت إليّ مرة أخرى، ويصافحني قائلاً:

ـــ أنا الدكتور (زهير فهمي) طبيب نفسي.. ولي بعض الأبحاث الخاصة في مجال الفيزياء وعلاقتها بالطب النفسي. وأظن أن عدم تأثير الإشعاع عليّ كان بسبب طبيعتي الشخصية، فأنا دائم الجدية في حياتي.. ولا أذكر أني قد ضحكت مرة واحدة منذ طفولتي، فأنا أكره القهقهة وأميل إلى الابتسام.

ـــ إذن فأنت تشبهني. معذرة نسيت أن أعرفك بنفسي أنا أيضًا.. (محمود حلاوة) مندوب تسويق ودعاية بإحدى الشركات الخاصة، ولا أضحك أبدًا أو حتى أبتسم. وليس الأمر راجع إلى الجدية أو الصرامة، ولكني دائمًا متشائماً عابساً منذ الصغر.. وكأنما ولدت مكتئبًا.

اتسعت ابتسامته أكثر، وظن أني أمازحه فقال:

ـــ يا رجل.. لا أحد يعبس إلى الأبد.. عليك بالابتسام فإنه يحبب الناس فيك.. وينفعك في مجال عملك!

ـــ شكرًا يا دكتور. لا أريدهم أن يحبوني، أريدهم أن يتركوني وشأني فحسب!

لم يعلق.. ولم أشأ أن يستمر الموضوع حتى لا أصبح زبوناً عنده في النهاية ويلبسني قميص المجانين. لذا أسرعت أردف:

ـــ المهم.. لو أن استنتاجك هذا صحيح، فيجب علينا أن نسرع ونتخلص من هذا النيزك بأي شكل، قبل أن يموت الناس من الضحك. فأعتقد أن قلوبهم لن تتحمل هذا الانفعال طويلاً.. أليس كذلك؟!

أجابني بجدية:

ـــ معك حق.. لقد شاهدت قبل أن أصادفك عددًا من حالات الإغماء الجماعي نتيجة لكثرة الضحك.. لكن بعضهم ما أن يفيق، حتى يعاود الضحك مرة أخرى بصورة متواصلة، وهذا خطر جدًا على جهازيهم العصبي والدوري.. أقصد المخ والقلب!

ـــ حسنا.. ماذا تقترح أن نفعل يا دكتور؟

ـــ هيا ساعدني لننقل هذا النيزك إلى تلك العربة هناك، ونضعه في الصندوق الخلفي لها.. ثم ننطلق إلى الصحراء المحيطة بنا وندفنه بعيدًا، على عمق عدة أمتار.. فهو برغم حجمه

الصغير إلا أنه يعتبر سلاحًا رهيبًا.. لا آمن أن يسقط في يد أحد فيسيء استخدامه في غرض شرير.

ـــ ولكن كيف سندير العربة.. وأين هي أدوات الحفر تلك، التي سنستخدمها لدفنه؟!

ـــ ابحث سريعًا، لابد أن تجد رفشًا هنا أو هناك.. وأنا سأتولى معالجة الموتور حتى يستجيب.. ثم عد لنتعاون في نقل النيزك.

لم أتردد، وانطلقت أبحث عن رفش في الشوارع، والمحلات القريبة حتى وجدت واحدًا.. وكان المارة ينظرون إليّ ويضحكون، وكأنما يشاهدون مخبولاً يسير بينهم بلا ضحك!

وعدت لأجد دكتور (زهير) قد أدار العربة، فتعاونا على نقل النيزك إليها.. محاذرين من أن نلمسه بأيدينا.. حتى لا يحرقنا بحرارته لو أنه ما يزال ساخناً، فاستخدمنا لوحًا خشبيًا لإخراجه، ثم وضعناه على لوح آخر.. أكثر عرضًا، وحملناه إلى صندوق السيارة الخلفي.

وبينما نحن منطلقين في الصحراء سألته: ـــ مازلت لا أفهم، لماذا نحن بالذات الذي لم يؤثر فينا ذلك الإشعاع العجيب؟!

أجابني وقد بدت عليه دلائل الحيرة، وهو يقود السيارة:

ـــ أنا نفسي لا أستطيع أن أخبرك عن السبب.. إن الدراسات التي أجراها العلماء والفلاسفة عن سيكولوجية الفكاهة والضحك مازالت قاصرة جدا.. سواء من الناحية النفسية أو الناحية البدنية (الفسيولوجية).. مازال العلم حائرًا فيما يختص بتلك الظاهرة البشرية العجيبة.. المسماة بالضحك، والتي يتميز بها الإنسان دون غيره من المخلوقات كنعمة العقل تمامًا.. بل إن كثيرا من العلماء والفلاسفة يؤكدون أنه لولا أن الإنسان كائن مفكر لما استطاع الضحك.

كان كلامه شديد الغرابة جدًا بالنسبة لي.. "من لا يضحك لا يفكر!".. هذا هو السر إذن في أن الحمار دائماً ما يبدو حزيناً مكتئباً!

إلا أن نظرة واحدة لوجهي، في مرآة السيارة الداخلية، جعلتني أتفهم وجه الشبه بيني وبين الحمار.. كلانا مكتئب حزين.. برغم أني أفكر، وحزني هذا يعود إلى كوني لا أكف عن التفكير!

لكنه ـــ الحمار ـــ على الأقل لن يقترف يوماً الذنوب التي أقترفها، وبالتالي فلن يحاسب عليها!

"أين ذهبت؟!"

انتبهت على صوت محدثي يسألني.. فأجبته ساهمًا:

ـــ أفكر في الحمار.

ـــ ماذا؟!

ـــ لا شيء.. لا شيء.

لم أشأ طبعاً أن يعرف أن هذا الحمار الذي أفكر فيه، يجلس بجانبه الآن.. لكنه لم يهتم، وأشار إلى مكان وسط الصحراء قائلاً:

ـــ أظن هذا المكان يصلح.

نظرت إلى حيث أشار، فوجدتها منطقة مثالية لدفن كتيبة من القتلى دون أن يشعر بهم أحد.. فأجبته متنهدًا: ـــ على بركة الله.

وتوقفنا لندفن القتيل.. أقصد النيزك!

***

عدت إلى داري في ساعة متأخرة من الليل.. بعد أن ودعت الدكتور ووعدته بزيارة قريبة، طبعاً لن تحدث لأنني لست مجنوناً لأزوره في مقر عمله بمصحة المدينة النفسية!

كان العمل الذي قمنا به سويًا قد التهم اليوم كله، وبعدها ظللنا جالسين نتحدث في أمور شتى، ونتساءل هل ستجدي حيلتنا هذه نفعاً، ويعود الناس إلى حالتهم الطبيعية.. ويتوقفون عن الضحك؟!

لكني حين عدت، لم أجد أحدًا في الشوارع سوى أقلية من البشر. كانوا يسيرون مترنحين مذهولين، وكأنما قد سقوا شرابًا منومًا أنساهم تمامًا ما جرى لهم هذا الصباح.. ولم أشأ إزعاجهم فتركتهم يعودون إلى بيوتهم في سلام.

وحين خرجت في اليوم التالي ذاهبًا إلى عملي.. كان كل شيء يسير على ما يرام.. الجميع خرجوا إلى أشغالهم ساعين لطلب الرزق.. دون أن يبدو عليهم أنهم يذكرون أي شيء مما قد حدث لهم بالأمس، في مثل هذه الساعة!

وفجأة.. اصطدمت عيناي بعيني ذلك الرجل الذي صفعته البارحة على قفاه حينما أصابتني حالة الهستريا، فأطرقت برأسي خجلاً، وكأنما أخشى أن يذكرني ويذكر ما فعلته به.. لكنى لمحت في نفس اللحظة على الرصيف المقابل، مخبر الشرطة الذي ركلته في مؤخرته، فأسرعت الخطى لأن هذا بالذات لا يمكن التفاهم معه لو تذكرني وتذكر ما حدث!

وحين تأكدت أنني ابتعدت عنه تمامًا.. راقني الموقف بشدة، فوجدتني أقدم على فعل لم أفعله منذ آماد طويلة..

لقد انفجرت ضحكاً!!

نعم.. أخذت أضحك بكل قوتي كالمخبول وأنا أتذكر هذه المرأة التي صفعتها، وهذا الصبي الذي ركلته، وذاك الرجل الذي لكمته، وتلك الفتاة التي قبّلتها، وذلك الشرطي الذي نشلته، و.....

وذلك الحمار الذي ركبته!!

وظللت أضحك.. وأضحك.. وأضحك..

حين سمعت طفلة صغيرة، تسأل والدها متعجبة:

ـــ أبي.. علام يضحك هذا الرجل؟!

أجابها وهو يسرع الخطى مبتعدا، ويحملها خائفاً مني:

ـــ لا عليك يا بنيتي.. إنه مخبول!

نعم.. أنا مخبول..

هاهاهاهاها..

هاهاهاهاها..

٢٠٠٤

الفهـــــرس

